نوادر وطرائف

أحلى أيام الزريبة

في يوميات طبيب بيطري

دكتور

عبد الله تاج الدين

أحلى أيام الزريبة

في يوميات طبيب بيطري

دكتور بيطري

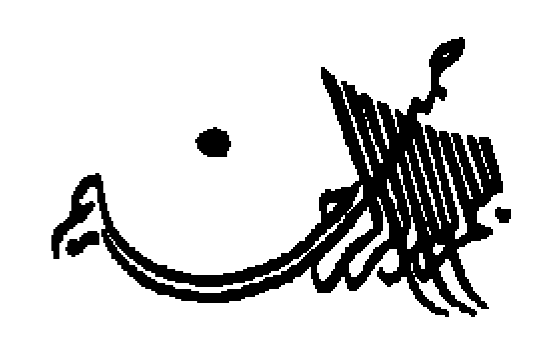
عبد الله أحمد تاج الدين

******

البربري للطباعة الحديثة

بسيون - غربية

ت / ٠١٠٧٦٤٣٢٤٥ - ٠١٥٢٤٣٨٢٦٣٣



الطبعة الأولى ١٤٣١ هـ - ٢٠١١م

اسم الكتاب : أحلى أيام الزريبة

في يوميات طبيب بيطري

المؤلف : د. عبد الله أحمد تاج الدين

رقم الإيداع : ٣٠٢٥ لسنة ٢٠١١م

الناشر : المؤلف

التنفيذ الطباعي : البريري للطباعة الحديثة

بسيون - غربية ت : ٠١٠٧٦٤٣٢٤٥

إهـــداء

***

اهدي هذا العمل المتواضع إلي روح والدي

الأستاذ احمد تاج الدين الذى غرس في نفسي حب الكتابة

والي اولادي احمد ومحمد وآية

لما بذلوه من جهد كي يرى هذا العمل النور

دكتور

عبد الله أحمد تاج الدين

مقدمة الكتاب

* * *

الزريبـــة

يعني لفظ الزريبة لكثير من أهــل المدينــة الرائحــة الكريهة و نسي الجميع أنها المصدر الوحيد في مصر الــذي يمد مصانعها بالمواد الأولية من ألبان و دهون و جلود و لحوم إلي آخره ... أما بالنسبة لأهل الريف فتعني كلمــة الزريبــة مصدرا للدخل المادي وسببا في إنبعاث رائحة الفطير المشلتت بالسمن البلدي و طواجن اللحم الضاني باللبن و القشــدة مــن بيوتهم ، بإختصار شديد فالزريبة تعتبر سببا في توفير آلاف من فرص العمل و طعاما لملايين الأفواه الجائعة أما الزريبة بالنسبة لي فتعني شبابي و حاضري و مســتقبلي و مســتقبل أبنائي من بعدي ففيها عشت أجمل أيام حياتي و لا تعجب أخي القارئ عندما أطلب منك مصاحبتي في رحلة إلي هذا المكان الجميل لتعيش معي أحلي أيام الزريبة .

المؤلف

د/عبد الله احمد تاج الدين

بداية غير عاطفية

عندما أفتش في أعماق أعماق ذاكرتي أرصد منظرا لا أنساه ابدآ وإحساسا لا يفارق نفسي الموجوعة بتلك الـذكرى المؤلمة و الغريب أنني أجد نفسي مـن تلقـاء نفسـها تقـوم باجترار هذه الذكرى من حين إلي آخر دون أن تأخـذ الإذن مني بذلك بل والأغرب أنني أجد بداخلى ما يدفعني لأن أطلب منها فعل ذلك والمدهش في الموضوع هو شعورى بلذة خاصة حين يغزونى الإحساس بتلك الذكرى المؤلمة.

أما المنظر فهو صورة ليد صغيرة قمحية اللون تتلـوى بين أصابع يد كبيرة بيضاء في الوقت الذي تمسك فيـه يـد بيضاء أخري بإبرة خياطة وتقوم بعملية وخز سريع ومتكرر لليد الصغيرة، كان الألم شديدا جدا مع تكرار عملية الـوخز، وكلما نظرت عيني أسفل هذه اليد الصغيرة أجد تحتها علـي الأرض كتاكيت صفراء بعضها يجرى وبعضها أعرج يحاول المشي. أما الغالبية العظمى من الكتاكيت ، فكانت لا تتحـرك نهائيا وكانت نفسى مشتتة ما بين التركيز في تحمل ألم الوخز بالإبرة والاندهاش لتصرفات الكتاكيت الجميلة التي تناثرت في أرضية العشة وكنت من وقت قليل ألعب معها وأطاردها وهي

تحاول نقر بعض دشيش الذرة الملتصق في كعبى وبين أصابع قدمي الصغيرة فكان حزنى عليها شديدا.

ومن هنا كانت بداياتي مع الألم غير عاطفيـــة بـــالمرة بسبب تصرفاتي مع الكتاكيت. أما حقيقة ما حدث فظلت أمـــي تعايرني به وتذكرني به طيلة حياتها معي ، كلمـــا شـــاهدتني أقترب من عشه الفراخ ، حتى بعدما كبرت ورغم ما فعلتـــه أمي بيدي لم تستطع الحيلولة بيني وبـــين حبـــي للكتاكيـــت ، وكانت تذكرني دائما بأيام شاهدتني فيها وأنـــا أدخـــل عشـــة الكتاكيت وأقوم بخنقها وأنا العب معها وتقوم هـــي بـــوخزي بالإبرة كي لا أقوم بخنق الكتاكيت مرة أخري . وكنت يومها في الثالثة من عمري علي حسب قول أمي.

وربما فسر ذلك ولعي الشديد بتربيـــة الـــدجاج وحبـــي للكتاكيت الصغيرة حتى يومنا هذا ، وعندما تعديت الخامســـة من العمر وتجنبا لتهديدات أمي المستمرة لي بالعقـــاب كلمـــا شاهدتني أتجه صوب عشة الفراخ ، وتذكيرها لـــي بعمليـــة الوخز بالا بره ، فكان علي أن أدير وجهي إلى جهة أخرى لا أجد فيها عقاب أمي ، فحرمت على نفسي دخول عشة فـــراخ أمي واتجهت إلى الخارج أقصد خارج منزلنا لأتعامل وأندمج وأتفاعل مع مخلوقات الله بعيدا عن أملاك أمي ، حيث كـــان

بيتنا يقع على شاطئ ترعه ممتلئة بالماء أغلب أيام السنة ، وبجوارنا ساقية مياه وأراضى زراعية شاسعة ، فخرجت أعلم نفسي بنفسي صيد الطيور والحشرات والسمك ، وأعطيت ظهري لكل أقراني ، ومن هم في مثل عمري ، فلم أكن أهتم باللعب معهم ، هم في واد و أنا في واد آخر .

ومع ذلك لم أكن طفلا وحدويا ، ولكنني كنت اجتماعيا إلى أقصى درجه في مجتمع آخر أفراده من الطيور ألبرية والثعالب والفئران والأسماك والقطط . كان بيني وبين كل واحد منهم ألف حكاية وحكاية ، أقضي نهاري كله معهم وأقضي ليلى أحلم بهم ، وأسأل نفسي عشرات الأسئلة ، وأجيب عليها بنفسي ، فمثلا لماذا لا تعيش العصافير في الماء..؟ ولماذا لا يطير السمك في الهواء ...؟ وكانت الإجابة عندي أن العصافير لا تعيش في الماء لأنها لم تجد من يضعها في الماء ، لذلك كنت أقوم بصيد العصافير وإغراقها في مياه الترعة ، مات منها ما مات ونجا لنفسه منها ما نجا . وكنت أتفنن في صيدها مره بالمصايد الشبكية ، وأخرى بإغرائها بالدخول بالغرفة بعد وضع حبوب القمح لها أمام الباب ، ومن ثم جر الباب بخيط طويل فيتم حبس العصافير والإمساك بها . أما عن السمك الذي لا يطير ، فقد جعلته

بعبقريتي يطير، حيث كنت أمسك ببعارير السمك الصغيره التي تسبح على سطح الماء في القنوات المائية الصغيرة بواسطة مصفاة الطماطم الخاصة بمطبخنا ، وأقوم بإحداث ثقب صغير في بطن العصافير ، ثم أقوم بإدخال بعارير السمك الحية في بطن الطائر ، ثم إطلاق سراح الطائر فتطير العصافير المجروحة ، والسمك يسبح داخل بطنها ، وبذلك حققت لنفسي أولى نظرياتي القاتلة في الطب البيطري ، حيث أرغمت الطيور على العيش في الماء وأجبرت الأسماك على الطير في الهواء .

فإذا كان لديك آخى القارئ أي اعتراض على هذه النظرية الجهنمية فاذهب عندي حيث كنت في الخامسة من عمري وناقشني.... من يدري ؟؟ فربما أقنعتك بنظريتي المجنونة ، حيث كان يومي يبدأ تحت قطرات الندى ، تغسل وجه النباتات قبل أن تستيقظ الشمس لتجفف نداها ، وينتهي عند دخول الليل مشغولا بعملياتي الجراحية ونظرياتي الفاسدة ، والتي لم أحقق من ورائها أي فائدة تذكر.

وعندما لاحظ والدي تصرفاتي الغريبة ، ووجد أنه لا جدوى من قيامه بضربي لإثنائي عن إجراء تجاربي ، سوى أنه بدأ في تعليمي مبادئ القراءة والكتابة في سن مبكرة ،

وقبل دخولي المدرسة ، وفعلا تعلمت القراءة جيدا ، ولكنني لم أتعلم الكتابة، بسبب أن يدي دائما كانت لزجه وملوثه بدماء العصافير والأسماك وكان القلم ينزلق دائما من بين أصابعي الصغيرة ، فأخذت أقرأ كل شيء تقع عليه عيني من لوحات الأطباء في الشارع والأوراق المهملة ، والجرائد والمجلات ، حتى قراطيس الفلافل ، وفجأة وجدت نفسي من كبار القراء ، وعندي معلومات تفوق معلومات بعض من هم أكبر منى سنا ، حتى تكونت عندي ملكة فكرية رائعة، وكان أبى يشترى لي مجلات ميكي وسمير ، وأطلق الناس عليّ اسم (عبد الله الفصيح) ، حتى وقع في يدي كتاب قديم جدا عن خرافه تقول كيف تصنع جوهره من عيون طائر البوم ؟ _ وهو طائر يعيش في الخرابات والأماكن المهجورة – كان عمري يومها يناهز الثماني سنوات ، عندما قررت صنع جوهرة ثمينة من عيون البوم ، أبيعها كي أحل بها جميع مشاكل أسرتي المادية، فذهبت أبحث عن بومة في جميع الخرابات والأماكن المهجورة التي تحيط بالمنطقة التي أسكن فيها ، حتى أمسكت بواحدة منها وأخرجت عينيها بيدي ووضعتهما في كمية من الملح وبعض التوابل كما هو مكتوب في الكتاب ، وانتظرت أياما حتى تصير جوهرة ، فأكلها الملح ولم يبقي منها سوي

كرة بيضاء صغيرة قوية الملمس ، فأخذتها وذهبت بها إلي والد أحد زملائي في المدرسة ، كان يعمل صائغا للذهب ، وعرضت عليه شراء الجوهرة ، وحكيت له الموضوع ، فأخذ يضحك وضحك كل من كان موجودا بالمحل. وقال لي أن هذه خرافات وليست حقيقة . وتعرضت يومها لأول صدمة في حياتي .

وأثناء بحثي عن البوم ، أمسكت بأعداد هائلة من الخفافيش التي كنت أقوم بوضعها في كميات كبيرة من الملح ، ثم شدها وتثبيتها مفرودة الجناحين علي ألواح من الخشب بواسطة مسامير صغيرة أو دبابيس ، و كانت النتيجة إصابتي بأمراض غريبة وغير معروفة حار فيها أطباء هذا العصر ، واحتار فيها أبي . وكنت أعرف سببها في داخلي ، وهو ذهابي المستمر إلي الأماكن المهجورة والخرابات ، وتعاملي مع هذه الطيور القذرة ، وعبثي بأحشائها ، وتلوث يدي بدمائها ، وعندما أخبر الأهالي والجيران أبي وأمي بكثرة ترددي علي هذه الأماكن الخطرة ، وخوف أمي من تعرضي للدغة عقرب أو ثعبان ، حبسوني داخل البيت وراقبوني أثناء ذهابي وعودتي من المدرسة رقابة صارمة .

بعدها اعتزلت هذا العمل نهائيا واتجهت إلـــي قـــراءة القصص وبعض الكتب العلمية ، وكان عمري يومها قد تجاوز العشر سنوات بقليل ، فقرأت قصة (العجوز والبحر) ، وكتاب (كليلة ودمنة) ، حتى وقع تحت يدي كتاب عن عبـــاس ابـــن فرناس ، ومحاولاته الطيران ، لذلك قررت أن أطير وأقنعت أخي (محمود) الأصغر مني بأنه يجب علينا أن نطير ، وذلك بربط كمية هائلة من الريش حول ذراعيه وجسمه ، وصنعت له ذيلا كبيرا من ريش البط والأوز الملقي علي جسر الترعة ، وكان أكثر اهتمامي بصنع الذيل لأن (عباس بـــن فرنـــاس) نسي أن يصنع ذيلا ، وصعدت سطح المنزل ودفعـــت أخـــي للطيران قبلي فسقط علي عشه مغطاة بكمية كبيرة من القـــش أسفل المنزل ، ولم يطير ولحسن الحظ انـــه لـــم يصـــاب إلا بجروح سطحية بسيطة جدا ، وكانت المحصلة النهائية علقـــه ساخنة جدا من أمي ، وأخري أكثر سخونة من أبي ، بعـــدها أقلعت تماما عن المغامرات

واتجهت إلي القراءة الجادة عن النباتات والحيوانـــات ، ومن حين إلي أخر كنت أصنع الطائرات الورقية والبلاستيكية وما شابه ذلك من ألعاب صبيانية ، وانتبهت إلـــي دراســـتي

واطلاعاتي الجادة في شتي دروب المعرفة ، ولكن قراءاتي عن الحيوانات كانت تشغل معظم وقتي .

وبدأت في مراسلة العديد من الجرائد والمجلات حتى حصلت علي الثانوية العامة ، وهنا كان لابد لي من وقفة مع نفسي كنت أحب أن ادرس الصحافة ، وكان مجموعي كبيرًا ويؤهلني لدخول كلية الصحافة والإعلام ، خاصة أنني كنت مواظبا علي نشر أزجالي وأشعاري في كثير من الجرائد والمجلات ، خاصة ركن أخبار الأطفال الذي تحرره الأستاذة (نعم الباز) في الصفحة الأخير من جريدة الأخبار كل يوم خميس ، ولكن شيئا قويا مهيمن ومسيطر في داخلي دفعني دفعا إلي دراسة المزيد عن شركائنا في هذه الحياة من الطيور والحيوانات .

وفي النهاية كان قدري المحتوم أن التحق بكلية الطب البيطري بجامعة الإسكندرية ومقرها قصر الملك فاروق المطل علي نهر النيل في قرية (ادفينا) مركز رشيد محافظة البحيرة .

* * *

أول عام دراسي بالكلية

في صيف عام ١٩٨٠ وصلتني بطاقة ترشـيح وزارة التربية والتعليم بالموافقة علي قبولي للدراسة كطالـب بكليـة الطب البيطري بـ (إدفينا) وعندما علمت إمرأة عمي بـالخبر كانت شديدة الفرحة و لم اعرف سـبب فرحتهـا إلا عنـدما جهزت أوراقي وعزمت الذهاب إلي قرية إدفينا حيـث مقـر الكلية وفوجئت بها تعطيني مبلغا كبيرا من المال و تطلب مني شراء خمسة صناديق من علـب صلصـة الطمـاطم لهـا و لجيرانها حيث كانت هناك وقتها أزمة شديدة فـي محصـول الطماطم و الصلصة غير متوفرة بالمحلات التجارية فتوجهت إلي مقر الكلية وبعد تقديمي لأوراقي انصرفت أسأل أين يقـع مصنع إدفينا ؟! وكان الطقس يومها شـديد الحـرارة شـديد الرطوبة في شهر أغسطس فدلني أحد الأهالي علـي بدايـة الطريق ومشيت علي قدمي تحت أشعة الشمس الحارقة وقـت الظهيرة حوالي أربعة كيلو مترات ولم أجد المصنع وعنـدما استعنت بأحد المارة ليحدد لي مكان المصنع بالضـبط نظـر أسفل جسر الطريق و قال لي هذا هو المصـنع وقـد لفـت انتباهي الشكل الغريب للمصنع وسألت رجل كان واقفا أمـام

الباب عن ثمن صندوق علب الصلصة فأخبرني أن المصنع هو مصنع فخار و أواني خزفية وليس مصنع معلبات وأنه قد حدث التباس في المعلومة حيث أن مصنع (إدفينا للمعلبات) لا يقع في قرية(إدفينا) ولا يعرف له مكان.

أما عن الكلية نفسها فسبق أن ذكرنا أنها عبارة عن إحدى استراحات الملك السابق و القصر يشبه عروس تجلس علي شاطئ النيل فالمكان رائع وله عبير خاص بالصيف وعبير خاص بالشتاء فعندما كانت تسقط حبيبات الثلج مع قطرات المطر في الشتاء تغسل جدران القصر و مرسي المراكب فيه تظن أنك في أجمل قصور أوروبا فسعدت جدا بالمكان .

ولكني مع أول محاضرة لي بالكلية وكانت في مادة علم التشريح وكان الأستاذ المحاضر ألماني الجنسية وهو من أكبر علماء مادة التشريح في العالم لم أفهم منه شيئا و توقعت أنني لن أفهم منه شيئًا مستقبلا فخرجت و تركت المحاضرة و خرج معي مجموعة كبيرة من الطلبة وقررنا ترك الكلية للأبد والتحويل من هذه الكلية للدراسة بأي كلية أخري كل طالب حسب هواه فحزمت حقيبتي وقررت العودة إلي منزلي في مدينة(بسيون) .

وأثناء عبوري نهر النيل بواسطة مركب من قرية(إدفينا) إلي قرية(مطوبس) نظرت إلي مبني كلية الطب البيطري وبكيت ولم أعرف لماذا أبكي؟ هل أبكي علي ترك الدراسة بالكلية أم أبكي علي تركي(ادفينا) وفور وصولي إلي بلدتي (بسيون) محافظة الغربية استقبلني أبي وحكيت له كل شئ و أخبرته بأنني لن أستطيع الاستمرار في الدراسة بهذه الكلية تحت أي ظرف وحكيت له كل شئ فكان جوابه(رحمه الله) هو جملة واحده (إذهب إلي كلية الطب البيطري و ارسب هذا العام و لك ما تريد في العام القادم) ثم أضاف أن له أمنية واحدة يريد مني أن أحققها له و هي أنه يراني راسبا و لو مرة واحدة في حياته، أحسست ساعتها أنه يعاقبني دفعة واحدة علي كل ما فعلته من شقاوة أثناء فترة الطفولة والصبا مع الحيوانات والطيور وكان قد تبقي يومان علي إجازة (العيد الكبير) فدخلت في إجازة العيد وكلما حاولت فتح الموضوع معه أعاد لي نفس الجملة وبعد انتهاء الإجازة رجعت إلي الكلية مرغما تحت ضغط أبي وقررت في نفسي تحقيق هدف أبي وهو الرسوب ومن ثم التحويل للدراسة بكلية الإعلام .

ودخلت نفس المحاضرة لنفس الدكتور الألماني و بدون أي مجهود حاولت أن أفهم ما يقول ببرود شديد جدا ما لبثت

بعدها أن وجدت نفسي أركز جيدا و بمـزاج شـديد دون أي ضغوط طالما أنه مطلوب مني الرسـوب فلمـاذا لا أرسـب بمزاج..؟ وأخرجت كراسـة المحاضـرات وأخـذت أكتـب المحاضرة و أنقل الرسومات الموجودة علي السبورة بهـدوء تام فلا ضغوط من فوقي ولا نجاح مطلوب مني .

وبعد المحاضرة وقفت علي مرسي المراكب الخـاص بقصر الكلية أقذف ببعض الحجارة صفحة الماء والتف حولي عدد من الطلبة يفعلون ما أفعل و كأننا نحاول إلقاء همومنا في النهر ووجهوا لي أسئلة كثيرة لماذا لم تنتقل للدراسـة بكليـة الإعلام كما زعمت قبل الإجازة ؟ ولماذا عدت..؟ و منهم من قال لي منك لله لقد أقنعت أعز أصدقائي بترك الكلية فلماذا لم تتركها أنت ..؟ و فوجئت بأن إدارة الكلية تطلبنـي وعنـدما ذهبت عنفني احد المسئولين و قال لي أن عدد المقبولين بالكلية هذا العام قليل جدا مقارنة مع الأعوام السابقة ومقارنة مع باقي الكليات وأن أسلوبي المقنع تسبب في ترك ربع الدفعـة مـن الطلبة للكلية وسألني بالحرف الواحد (إمتي ح تسـيب الكليـة وتريحنا) و منذ ذلك الحين أصبحت من مشاهير الكلية .

وفي قرارة نفسي قررت أن أمضي هـذا العـام بـأي طريقة والعام القادم أنتقل للدراسة بكلية الإعلام وقـررت أن

أعيش في حالي و رجعت إلي مقر إقامتي في المدينة الجامعية وأثناء تمددي علي سريري حاولت قتل الوقت بأن بدأت أتصفح أول محاضرة لي كتبتها في حياتي فوجدتها محاضرة رائعة جدا و نظرت إلي الرسوم بها وتأملت قدرة الخالق سبحانه وتعالي في سبع رسومات بين يدي الأولي لبيضة دجاجة والثانية لنفس البيضة وقد بدأ نمو جنين الكتكوت بها والثالثة والرابعة والخامسة لمراحل تطور تكوين جنين الكتكوت من جناح وأرجل ورأس وعيون ومنقار و خلافه أما السادسة :كانت بيضة تحتوي علي كتكوت كامل النمو مستعد للخروج من البيضة والسابعة إذا برأس الكتكوت تخرج من البيضة و الكتكوت الجميل يستقبل أول لحظاته في الحياة بجناحيه الصغيرتين فوجدت الحياة تدب في أوصالي و في عروقي وأحسست أن هناك من يدفعني لان اجلس علي مكتبي وأمسك بألواني وأقلامي وأقوم بعملية نقل وتمحيص و تبييض للمحاضرة و إبداع الصور بها فقمت برسم الكتكوت داخل البيضة وخارجها بالألوان الزاهية علما بأني موهوب بالرسم وسبق أن حصلت في الشهادة الإعدادية علي الدرجة النهاية في مادة الرسم وعندما لاحظ زميلي في الغرفة انشغالي بنقل المحاضرة طلب مني شرحها له فشرحتها له فذهب وشرحها

هو بدوره لبعض الزملاء و إذا بالدفعة كاملة تأتي وتطلب مني تصوير محاضرتي العظيمة .

وأخيرا اجتمعت الدفعة كلها في قاعة التليفزيون بالمدينة الجامعية بعد قيامهم بتصوير محاضرتي الرائعة و طلبوا مني شرح عملية تكوين الكتكوت في البيضة فشرحتها لهم مرات عديدة .

وأحسست بعدها بالإفتخار والإعجاب بنفسي وأيقنت أنني كنت مخطئا عندما فكرت في ترك الكلية وأن أبي علي حق و تذكرت كتاكيت أمي التي سبق وأن قمت بخنقها أثناء فترة الطفولة وتمنيت ساعتها لو كانت أمي موجودة لترى بعينها وتسمع بأذنها وتشاهد عظمة ابنها الذي يقوم بشرح المحاضرة للطلبة وذهبت في صباح اليوم التالي إلى الكلية كأنني طاووس ولم لا..؟ فأنا منذ البارحة أمسيت أعظم أستاذ في طب الكتاكيت .

ولكن يا فرحة ما تمت أخذها الغراب و طار فكتكوتي الذي تابعت حياته في سبع صور في محاضرتي والذي خرج في المرحلة السابعة من بيضته لم يصبح ديكا ولا فرخه بل أصبح همي وغمي وحزني لمدة طويلة حيث فوجئت بإدارة

الكلية تستدعيني ظهر ذلك اليوم للمرة الثانيـــة فـــي يـــومين متتاليين و دخلت علي أستاذ هب واقفا من فوق كرسيه وشـــد أذني بيده وقال لي(يابسيونجي) نسبة إلي بلدتي بســـيون أنـــا عرفت عنك كل حاجة إما أن تعيش في حالك وإما أن تأخـــذ أوراقك وتذهب إلي أي كلية أخري في ســـنتين داهيـــة غيـــر مأسوفا عليك فاندهشت جدا وأصابني الذهول و استطرد قائلا أنا أعلم كل ما يحدث داخل المدينة الجامعية وقد سبق لـــك أن أقنعت ربع الدفعة بترك الكلية وسكتنا أما ما حدث بالأمس فلن يتم السكوت عليه لقد قمت بتشويش معلومات باقي الدفعة قلت له أنا....؟؟!! قال نعم أنت . أليست هذه محاضرتك العظيمـــة في علم التشريح وأخرج لي صورة محاضرتي الرائعة قلت له نعم هذه محاضرتي قال انه بهذا الإعتراف يمكن تحويلك إلي مجلس تأديب إدارة الكلية و ربما يلقي بك في السجن بعد ذلك فأصابني الصمت والذهول واستطرد يقول موجها كلامه لي يا أفندي يا محترم هذه محاضرة في علم التشريح تبين الفرق بين الشكل السفلي لإحدي عظام القدم الأمامية وهي دراسة مقارنة في سبع حيوانات مختلفة في الجمـــال والأبقـــار والجـــاموس والكلاب والقطط والماعز والخنازير فشـــكلها الســـفلي فـــي الخنزير بيضاوي يشبه البيضة وفي الحيوانات الأخرى ما بين

ملساء و متجعدة وبها بعض البروز أما في الجمل فهي تشـــبه رأس طائر بمنقار وليس للموضوع أي علاقة لا بالبيضة ولا بالفرخة ثم احمر وجه الأستاذ و نظر إلي بغضب وقال كيف تفهم ..؟ و من أين أتيت بهذه القدرة علي الإقناع إنك تــدمر عقل دفعة كاملة من الطلبة، عليك أن تعيش في حالك أو تترك الكلية .

ثم وضع يده في جيبه وأخرجها بسرعة فوجدت نفســي أرتعد و بلا شعور أخفي يدي وراء ظهري ظنــا منـــي أنــه سيخرج من جيبه إبرة صغيرة يشكشك بها يدي كمــا كانــت تفعل أمي حين أقوم بخنق كتاكيتها لكنه لم يخرج إبــرة بــل اخرج منديلا يمسح به زجاج نظارته أما الإبرة الحقيقية فكانت مغروزة من رأسي إلي أخمص قــدمي مــرورا بأحشــائي، طأطأت رأسي وحمدت الله أن أمي لم تعش إلي هذا اليــوم و تشاهد ابنها وتري خيبة الأمل في ابنها راكبة عظمــة رجــل جمل بعدها اعتزلت الفتاوى البيطرية إلي أجل غير مسمي.

* * *

ذوق حمار العم يونس

كي أنسى ما حدث لي الفترة الماضية من أحداث مؤسفة داخل الكلية أمضيت إجازة يومين في بسيون بعدها قررت العودة إلي الكلية فقط لإكمال هدفي وهو الرسوب هذا العام دون أي ضغوط فهذه رغبة أبي وأمنية حياتي .

وحتى لا أشعر بالملل فضلت عدم الجلوس وحدي في المدينة الجامعية أثناء تواجد الطلبة بالكلية فذهبت إلي الكلية وحضرت إحدى المحاضرات العملية في مادة (سياسة الحيوان) وهو علم يشرح كيفية التعامل مع الحيوان وفهم سلوكه من وقت إلي آخر ومن حيوان إلي حيوان فمثلا عليك أن تتعلم أن الحصان يرفس إلي الخلف فلا يجب أن تقف خلفه وأن البقرة ترفس إلي الجانب فممنوع عليك أن تقف بجوارها وأن البغل يعض وأن الجاموسة تنطح، وكان مكان المحاضرة العملية هو مزرعة الكلية وفوجئت بالدكتور يشير إلي ويطلب مني الخروج من بين الطلبة والوقوف أمامه وسألني هل حضرت المحاضرة السابقة ؟ . فقلت له نعم ولا أعرف ما الذي دفعني إلي الكذب ربما كان إحراجي أمام الطلبة هو الدافع، ثم استطرد فقال لي أشرح لي الفرق بين الجمل

والبقرة. فلم أفهم السؤال فكرر علي أنت شاهدت هذا الحيوان أمامك كيف تعرف أن هذا الحيوان جمل أو بقرة..؟ فقلت له أنا من بلد أرياف وأعرف جيدا الجمل من البقرة ولا أحتاج للبحث عن فرق بينهما وإذا بإحدى الزميلات من مدينة الإسكندرية تشق الصف بعصبية شديدة وتقول:أنا يا دكتور أجيب لك. وكأنها لم تخرج من المدرسة بعد ولم تنتقل إلى الحياة الجامعية واستطردت الزميلة العبقرية قائلة:الفرق أن الجمل جسمه مغطي بوبر كثيف أما البقرة فجسمها مغطي بشعر وأن الجمل له خف والبقرة لها أظلاف و هكذا ... فأخذ عقلي نتيجة استفزازها لي يعمل بكفاءة عالية فقاطعتها قائلا للدكتور: يا دكتور أنا عندي أهم فرق بين الجمل والبقرة فقال لي: و ما هو فقلت له :(**الهامب**) يا دكتور (**الهامب**)، وهو الترجمة الانجليزية لمعني كلمة سنام الجمل (صنم الجمل) وهو أعلي منطقة في ظهر الجمل فقال الدكتور ياسلام ياسلام وهو يضحك ونظر لي وقال ألا تعرف أن هناك سلالات من البقر لها (**هامب**) فضحك الجميع وانتشرت الكلمة بين الطلبة انتشار النار في الهشيم وقلما تجد طالبا يكلم زميله في الكلية إلا واحتوي كلامهما علي كلمة(**الهامب**) .

وبعد فترة طويلة قابلت أحد الزملاء الوافدين الجدد بالسنة الأولي بالكلية وكنت يومها في البكالوريوس وكنا في بداية العام الدراسي وكان يحدثني وأحدثه وكان يعاني من قلق وخوف من الدراسة في الكلية فقلت له: أتعرف أهم شئ يجب عليك أن تركز فيه في الكلية؟ . ففوجئت به يقول لي: أعرف طبعا إنه **(الهامب)** والغريب أنه لم يكن يعلم أنه يقف أمام ملك**(الهامب)** وصاحب براءة اختراعه إلي يومنا هذا بكلية طب بيطري (إدفينا) جامعة الإسكندرية .

وحتى لا يأخذنا **(الهامب)** إلي موضوع آخر نرجع إلي موضوعنا الأساسي وهو مادة (سياسة الحيوان) فهي مادة تعلمك كيف تسوس وتلامس الحيوان دون أن يؤذيك فإذا أردت مثلا أن يرقد الحيوان علي جانبه الأيمن بغرض إجراء عملية جراحية في الجانب الأيسر وكان هذا الحيوان عشرا (أي بداخله جنين) فدراستك لهذه المادة تمكنك من ترقيد الحيوان بطريقة سلسة وبسيطة دون أن تسبب له إجهاضا وما عليك إلا إتباع خطوات معينة ومرتبة بواسطة حبل تقوم بربطه في أماكن معينة بأرجل الحيوان ثم تقوم بسحب الحبل

فيرقد الحيوان بطريقة هادئة دون أن يقع ولا يحدث له أي أذي ولا لجنينه .

فأحببت هذه المادة ونظرا لأنني لم يسبق لي حضور محاضرات فيها من قبل وخوفا من الإحراج مرة أخري أمام الطلبة قررت الإستعانة بأحد الزملاء من الدفعات السابقة بالكلية ، فنصحني بالذهاب إلي عم يونس ، وهو سايس إسطبل الكلية وقال لي أن هذا الرجل يعرف هذه المادة جيدا ويمكنه أن يشرحها لك بالغة الانجليزية ، وذلك من كثرة حضوره مع الطلبة وتعامله مع الحيوانات . فذهبت إليه بصحبة بعض الزملاء والزميلات إلي مقر عمله بحظيرة المواشي بالكلية لمقابلته وطلبنا منه شرح هذه الخطوات وكان رجلا قصير القامة ضعيف البنية ولكن كان لديه شخصية قوية ونظرة ثاقبة تجبرك علي احترامه فاعتذر لنا متحججا بأنه مشغول وعليه القيام بأعمال كثيرة في المزرعة ، ورغم توسلاتنا له إلا أنه رفض بشدة وقال لنا:(اذهبوا إلي الحمار وهو ح يفهمكم علي كل حاجة) وأشار بيده فإذا بحمار أبيض اللون طويل القامة مفتول العضلات أذناه كأنهما لاقطات رادار أو أقمار صناعية يحركهما بطريقة سلسة للأمام وللخلف كأنه يستقبل إرسال هوائي معين، فسبب لنا كلام عمي يونس ضيقا

شديدا وفسرنا تصرفه هذا بأنه استهزاء واحتقار منــه لنــا – معشر الطلبة –.

وحان وقت الغداء فذهبنا لتناول الطعام بمطعم الكليــة وقابلت نفس الطالب الذي نصحني بالذهاب إلي عــم يــونس وحكيت له معاملته السيئة لنا فأبتسم وقال: الرجل علي حــق، لماذا لم تذهبوا إلي الحمار..؟ وعند ذلك كدت أنفجر في وجهه غضبا فهدأ من روعي قائلا بعد الغداء سأذهب معكم وسترون أن الرجل علي حق وأنني علي حق وعدنا إلي المزرعة مرة أخري ووقفنا أمام الحمار العملاق وهو يتوسطنا كأنه قائــد عظيم أو معلم متمكن ونحن أتباعه يتباهي بشبابه وبصــحته وربما كان يتباهي بعلمه كذلك . وسألني الطالب ماذا تريد من الحمار..؟ فقلت له لا أعرف معني سؤالك فقال: أنتم حضرتم لتتعلموا كيف يرقد الحيوان بأوضاع مختلفة فما علــيكم إلا أن تشيروا للحمار بالحركة التي تطلبونها منه و هو ينفذها لكــم وضرب لنا مثلا ففوجئنا بأن الحمــار يفهــم كــل شــئ وأن تصرفاته أبلغ من الكلام فرفع رجله اليمنــي الأماميــة فقــام الزميل بربط الحبل بها ثم رفع الرجل اليسرى الخلفيــة فقــام بربطها كذلك ثم أحنى الحمار رقبته ليومئ لنا بلــف الحبــل عليها ثم قبل أن يقوم بشد الحبل رمَي الحمــار نفســه علــي

الأرض علي الجانب المراد ترقيده عليه وعلي مدار ساعتين قضينا مع الحمار أحلي أوقات الزريبة والحمار يشرح لنا ونحن نكتب وراءه . وأقسم بالله العظيم أنني لم أشاهد بحياتي لا داخل مصر ولا خارجها حمارا في مثل رجاحة عقل وأدب حمار(عم يونس) فأدب هذا الحمار وعدم محاولته إيذاء أي طالب رغم تعمدنا الخشونة في التعامل معه فلم يحاول إيذاء أحد منا ولم يغضب أمامي خلال حياتي معه إلا مرة واحدة سأقصها عليكم ولكن بعد قليل فقد أصبح الحمار مثلا أعلي لي . فكلما قابلتني مشكلة في المذاكرة كنت أتذكره دائما واسأل نفسي (يعني أنت أقل فهما من حمار عم يونس..؟؟!).

إلي أن جاء وقت امتحان آخر العام في هذه المادة وكان علي كل طالب تسلم مظروفا أن يفتحه ويقوم بتنفيذ العملية المطلوبة منه . ولما كان حمار عم يونس يقوم بتغشيش الطلبة رفض أستاذ المادة مشاركة الحمار للطلبة في امتحانهم وأمر بإحضار مجموعة أخري من الحمير الغبية الغير مدربة استعارتها إدارة الكلية من بعض الفلاحين وعندما فتحت مظروفي وجدت الطلب فيه هو أسهل طلب في هذه المادة علي الإطلاق ، وهو عمل(حكمة) للحيوان وهو لجام يتم تجهيزه بواسطة حبل ووضعه في رأس الحيوان كي يتم جره

منه فصنعته وذهبت إلي الدكتور لأقدمه له فطلب مني إدخاله إلي رأس أي حمار فلم أجد أي حمار غير مشغول إلا حمار عمي يونس الواقف بمفرده علي بعد أمتار قليلة من مكان الإمتحان ولكنه ممنوع من المشاركة في الامتحان فأذن لي الدكتور أن أضعها علي رأس حمار عم يونس فاتجهت نحوه فإذا هو مشغول بمراقبة زملاءه من الحمير ومراقبة الطلبة أثناء امتحانهم وشعرت أنه حزين جدا ربما كان ذلك لحرمانه من هذا الشرف وما أن رآني أتجه نحوه حتى غمرته سعادة شديدة فأخذ يصدر صوتا خفيفا ويرتفع بقدميه الأماميتين ويضرب الأرض بهما ويقول(هذ ها ها) وكأنه يهمس لي في أذني مرحبا . وما أن رأي اللجام بيدي حتى طأطأ رأسه فألبسته إياه ثم تحدثت إليه وأمرته أن يتجه نحو الدكتور وقلت له لو سمحت (شي.. شي..) وإذا بالحمار يغضب مني غضبا شديدا ويفتح فمه فظننت أنه يحاول عصي هكذا فهمت في البداية ورفض التحرك بتاتا فذهبت إلي عم يونس أشكو له سوء تصرف حماره وأنا غاضب فابتسم وقال لي :إنه حمار ذكي يحبك ويعمل في مصلحتك ولو ذهب معك في هذه الحالة لأعطاك الدكتور صفرا ولرسبت في الامتحان هذا العام (فقلت في نفسي يا شماتة و فرحة أبوك فيك يا عبد الله) ولما

وضحت لعم يونس أنني صنعت اللجام بإتقان شديد وبطريقة صحيحة ووضعتها علي رأس الحمار بعناية فائقة قال: نعم أنت فعلت ذلك ولكن يجب عليك تفويت الحبل بين طرفي اللجام مرورا بفك الحمار والحمار يفتح فمه ليس بغرض إيذائك أو عضك ولكنه يقول يجب عليك تفويت الحبل من هنا فرجعت خطوة للخلف وفعلت مثلما نصحني عم يونس وإذا بالحمار يتحرك فرحا ومختالا نحو الدكتور والدكتور يقول لي: ممتاز! ممتاز! .

ونظرت إلي الحمار فوجدت في وجهه ابتسامة ورضا كأنه إنسان مخلص وفهمت ساعتها لماذا يقول المثل الشعبي (ما أهيل إلا بني آدم) فرفعت قامتي وطبعت قبلة علي رقبة الحمار وسلمت علي عم يونس وما أن غادرت مكان الامتحان حتى وجدتني أهتف وأنا أتجه إلي مطعم الكلية وأصيح بقوة يعيش عم يونس يعيش حمار عم يونس.. الحمورية ذوق الحمورية أدب الحمورية أخلاق....فلتحيا الحمير

***

الخنزير المظلوم

سبق وأن تكلمنا بإيجاز شديد عن قرية إدفينا وأود هنا أن أتحدث عنها بعض التفصيل .

فإدفينا من أجمل بلاد مصر و هي تقع علي البر الغربي لنهر النيل فرع رشيد ويقابلها مدينة (مطوبس) من البر الشرقي و للطقس في إدفينا عبير خاص فهي تبعد مسافة ٢٥ كيلومتر تقريبا من مدينة رشيد الواقعة في الشمال علي البحر المتوسط لذلك فجوها مميز فعند اشتداد الحرارة في فصل الصيف وبمجرد جلوسك تحت شجرة علي الشاطئ تشعر وكأنك تجلس أمام تكييف هوائي رباني ينسيك حرارة الجو فأشجارها الصفصاف تتراقص أغصانها في حركة شبه دائرية علي صفحة الماء كراقصة باليه أو كسندريلا تمسح لوحا من الزجاج مبسوطاً علي صفحة الماء وهذا المنظر موجود علي امتداد الشاطئ .

وعلي بعد كيلومترين إلي الشمال من إدفينا تجد (قناطر إدفينا) وهي آخر حدود الماء العذب في فرع رشيد وقد تم إنشاؤها للمحافظة علي ماء النيل العذب من الضياع في البحر المتوسط عند برزخ رشيد و البرزخ هو مكان إلتقاء الماء

لعذب مع النحر المالح وفيه تعيش أسماك من نوعيات خاصه .

والحقيقة أنه عندما جاءتني بطاقة الترشيح بقبولي كطالب بجامعة الإسكندرية فرحت جدا و لكنني عندما علمت أن الكلية تقع بقرية إدفينا غضبت وبعد مرور أكثر من ربع قرن لو خيروني الآن بين إدفينا والإسكندرية لاخترت إدفينا لأنني شعرت فيها بسعادة غامرة أغلب الخمس سنوات التي عشتها بها ولم يوقظني من سعادتي هذه إلا ضجيج الطلبة في المدينة الجامعية وعدم قدرتي على النوم نهائياً خاصةً مع تصرفات الطلبة الغريبة فالمدينة الجامعية تقع في مواجهة قناطر إدفينا في موقع سياحي رائع يأتي له الزائرون كل يوم جمعة بصفة مستمرة لقضاء إجازة نهاية الأسبوع، وأثناء عودة الطلبة من الكلية إلي مقر الإقامة بالمدينة الجامعية مترجلين علي الأقدام مستبدلين الطريق العام الطويل بطريق قصير غير مأهول يمرون بأماكن مهجورة و خالية من السكان يلقي الأهالي بها الكثير من حيواناتهم النافقة قد يشاهدون قطاً ميتاً أو كلبا أو حماراً أو ماعزا أو ما شابه ذلك ممن فارق الحياة قريبا أو منذ فترة طويلة فكلاهما مطلوب .

فأصبح منظرا مألوفا وعاديا أن تدخل دورة مياه المدينة الجامعية فتجد بعض الطلاب يقومون باستخلاص و تجفيف عظام حمار وجدوه ميتاً ومُلقى في طريق عودتهم من الكلية وبعد فترة وجدت نفسي أحذو حذوهم و أبحث عن أي عظام أنظفها و أقوم بتخزينها و الاستعانة بها في دراستي فما كان ينكره الأهالي وأبي وأمي علي بالأمس أصبح قانونيا اليوم، فاليوم أصبحت و أنا شابا يافعا أتجول في الخرابات والأماكن المهجورة تماماً كما كنت أفعل بالأمس و أنا طفل صغير والفرق الوحيد أنه ثكلته أمه من فكر في منعي أو ظن أنه يستطيع توجيه اللوم لي فاليوم أمارس هوايتي القديمة ولكن بصورة شرعية ....فليحيا الطب البيطري...

وأريد هنا أن أحدثكم عن شئ لاحظته قد تستنكروه مني و تغضبون لتحدثي فيه وقد تعجبون لذلك عندما أقر و أعترف بأن أجمل عظام تعاملت معها في حياتي هي عظام الخنزير، فالخنزير يمتلك عظاماً ناعمة الملمس رائعة التكوين متناسقة الملامح و كنت كلما ذاكرت في الخنازير أشعر داخلي بتفاعلين متناقضين الأول أن دراسة الخنزير من الناحية التكوينية والتشريحية سهلة وجميلة وممتعة أما التناقض الثاني هو أن ديني يقول أنه نجس لذلك قررت التعامل مع الموضوع

بحرص ولكنني لا استطيع أن أنكر أنني في النهايـــة أحـــب الخنزير ووصلت إلي الاستنتاج الأتي وهو أن الخنزير مـــن مخلوقات الله الجميلة الرائعة لان الله خلق فسوي وقدر فهدي فخلق الله الخنزير وسواه وقدر له وظيفته في الحياة و هذا سر عظمة الخالق فلم يخلق الله الخنزير بغرض أن يأكله النـــاس فحرم أكله و لكن خلقه لمساعدة الناس في التخلص من جميع قاذوراتهم و نفاياتهم و تحويلها إلي سماد تنتفـــع بـــه الأرض وحمايتهم من الإصابة بالأمراض الخطيرة التـــي قـــد تفتـــك بالإنسان و تدمر حياته .

أما عظمة الخنزير فهي في نجاسته كي يبتعد الإنسان عنه ودعني أخي القارئ أن أقدم دفاعي عن الخنازير لأوضح لك أن جميع مخلوقات الله تعالي تنقسم من حيث تناولها للغذاء إلي ثلاثة أقسام أما آكلات النباتات كالبقر والجاموس والماعز والحشرات و ما شابه ذلك أو آكلات للحوم كالمفترسات مـــن الأسود والفهود ...الخ أو آكلات لكل شئ من أعشاب و لحوم وغير ذلك و يقع تحت هذه الشريحة نوعان مـــن المخلوقـــات هما الإنسان والخنزير فكلاهما يأكل اللحوم والنباتات والحلوى ...الخ .

وهناك معلومة لا يعرفها إلا الأطبــاء البيطريــون أن هناك نوعا من الخنازير يأكله بعض الناس فــي مصــر ولا يعرفون أنه خنزيرا يعرف باسم (الأرنب الرومي) أما الاســم العلمي له فهو خنزير غينيا وهو حيوان من الناحيــة العلميــة يستخدم في إجراء اختبارات الأدوية والسموم ولا أعــرف إن كان أكله حراما أم حلالا لأنني لست متعمقا في هذا الجانــب من العلم الديني غير أني أضيف انه لأيتم سلخه كباقي الأرانب ولكن يتم صمته في الماء الساخن مثل الخنازير .

ويحتوي لحم الخنزير علي نسبة غير قليلة من المــواد السكرية والنشوية مثل لحوم الفصيلة الخيلية فإذا تناولت لحما به حلاوة فعلبك أن تشك في نوع اللحم إما أن تكون خنــازير وإما أن تكون خيول أو حمير ولحم الخنازير يفسد بسرعة إذا تعرض إلي الهواء أو البعد عن الثلاجات لما يحتويه من مواد سكرية ولا يتم ذبحه لالتصاق رأسه بكتفيه برقبة غليظة فيــتم وخزه في قلبه وفي هذه الحالة لا يتم التخلص من جميع دمــه كما في الذبح الشرعي ويظهر ذلك في احتقان وتجمع الــدماء في منطقة صدر الحيوان عند تعليقه للبيع للجمهــور فيمكنــك التفريق بينه و بين الضأن وذلك ببحثك عن اللية فــي لحــم الضأن ويتميز شكل لحم الخنزير بــاللون المرمــري بســبب

اختلاط الأنسجة اللحمية مع الأنسجة الدهنية وهذا ما يعطيـــه مذاق خاصا و رائحة مميزة عند الشواء .

ويتميز كبد الخنزير عن كبد باقي الحيوانات الأخـــرى أنك إذا قمت بشد سطحه ظهرت عليه أشكالا هندسية سداسية الأبعاد منتظمة تشبه خلايا قرص عســل النحــل وإذا قمــت بصهر قطعة من دهن الخنزير علي النار ثم تركتها لتبرد فلن يتكون عندك سطح ناعم كباقي دهون الحيوانات الأخرى ولكن يظهر سطح غير مستوي متجعد علي هيئة دوائر بارزة .

ويصاب الخنزير بالعديد من الأمراض أشهرها الديدان الشريطية فربما يظهر لك الخنزير بصحة جيدة يأكل و يشرب و يتحرك مع أن بداخله العشرات من الأمراض المختلفة .

وأود هنا أن أشير إلي أن هنــاك مخلــوقين يشــبهان الخنزير يعيشان في الماء أولهما هو القرموط و هو يعيش في المياه العذبة ووظيفته تنظيف الأنهار و التــرع مــن جثــث الحيوانات النافقة وبقاياها وبذلك يتم تنظيف مياه الأنهار ومنع انتشار التلوث بها لتبقي المياه نظيفة وصالحة للشرب للإنسان والحيوان أما المخلوق الأخر فهو ثعبان السمك الذي يســتطيع العيش في المياه العذبة والمياه المالحة وهو يقوم بتنقية الميــاه

مما يعلق بها من مواد عضوية صغيرة ناتجة من تحلل الجثث المتعفنة فلماذا يكره الناس الخنزير ويحبون القرموط و ثعبان السمك؟؟ فيا حبيبي كلهم في تصــرفتهم خنــازير غيــر أن الخنزير يقول لك لا تأكلني ولا تقترب مني ودعني أخــدمك أنظف لك بيئتك و أحتفظ بالأمراض داخل جسدي فلا تؤذيك يمكنك ان تستمتع بخدمتي لك من بعيد لا تكرهني فقد خلقنــي الله من أجلك فأنا خنزير مظلوم.

***

حياة الرعب في ادفينا

خلاصة الموضوع أنني لم أعد أستطع تحمل العيش داخل سكن الطلبة بالمدينة الجامعية بإدفينا لذلك قررت البحث عن غرفة للسكن لدي الأهالي وفوجئت بالوجه الأخر للحياة الصعبة داخل القرية فأنا أهرب من غرفة يعيش بها أربعة أو خمسة طلاب لأجد أن الغرفة الواحدة لدى الأهالي يسكن بها أكثر من سبع طلاب فالوضع أسوأ، فقضيت أياما أسير فيها بين طرقات و دروب القرية أطرق الأبواب وأسأل أصحاب المحلات عن غرفة صغيرة و لكن بسعر مناسب أعيش فيها وحدي فلم أجد فزادت المرارة في نفسي وامتلأ قلبي بالهم والغم ووصلت إلي مكان تهت فيه ووقفت لا أعرف من أين أتيت وإلى أين أذهب و لما شاهدني رجل و لاحظ حيرتي سألني ماذا أريد فقلت له أنني أبحث عن غرفة للسكن فقال لي غالي و الطلب رخيص و أخذني إلي عمارته الخاصة الممتلئة بالطلبة ودفعني بيديه فأخذت أصعد سلم العمارة حتي وطأت قدمي السطح فسألته أين الغرفة..؟ أنا لا أجد غير سطحا واسعا فأشار بيده إلي باب و شباك قديمين من الخشب ملقيان علي السطح يقف عليهما مجموعة غير قليلة من البط و الأوز

و قال هذا باب الغرفة وذلك شباكها و ما عليك إلا أن تشتري كمية صغيرة من الطوب وتبني لك غرفة وحصيرة من البوص تغطيها بها ثم تقوم بخصم ثمنها من الإيجار فسألته أين دورة المياه فرد: عليك أن تستعمل حمام الجامع واعمل حسابك أن الجامع يفتح من قبل الفجر و طوال اليوم ويغلق بعد صلاة العشاء فاستطردت قائلا له و إذا إحتجت الحمام ما بين العشاء و الفجر فماذا أفعل...؟ قال لي إستعمل كيس بلاستيك ولما أردت أن أستفسر منه عن مصير الأعداد الموجودة من البط و الأوز قال: هيه ح تعملك إيه ..؟ أنت مش دكتور بطري..؟ عالجيم وتابع الحالة الصحية لهم و إعتبرها مذاكرة و إنشاء الله في أي موسم ديني أو مناسبة ح أعزمك تتعشى معانا منهم فتركته وأنا أجرى علي السلم كارها للكلية و لإدفينا و للعيشة و اللى عايشنها و للظروف السيئة التي أحيا بها و أنشدت زجلي :

يرضيكوا أذاكر ياناس فى وسط بط ووز
ألقاه و أنا نايم على دماغى بجناحه يهز
دى عيشة القبر أرحم م الحياة دية
وقلت دابيـتنا والله هوه بيت العز

وفى هذه الفترة أصابني المرض وزاد ضعفى ونقص وزنى بشده نتيجة عدم وجود أمل في الخلاص من الضجيج وعدم الراحة بالمدينة الجامعية وزاد حقدى على إدفينا وأهلها فلم تعد فى نظري ذاك الجمال ولا تلك الروعة الى أن أتى يوم أخبروني فيه أنه سيقام حفل سنوى ساهر داخل الكلية يدعى إليه كبار البلد وبعض رواد جامعة الإسكندرية وطلبوا منى إلقاء قصيدة ترحيب للضيوف و لم أعلم بالحفل إلا بعد الساعة الثالثة ظهرا و الإحتفال يبدأ في السادسة مساء واحترت ماذا أقدم للناس فلم أجد فى رأسي إلا بعض أبيات الترحيب ولم أجد فى أوراقي إلا قصيدة(كسفتينى يا إدفينا) وهى قصيده طويلة جدا لا أتذكر الآن معظم أبياتها بل أتذكر بعض الأبيات القليلة منها وكانت منظومة على شكل موال وهى فقرات صغيره تمثل كل منها فكره أحكى خلال هذه الفقرات قصة حياتي كاملة منذ وطأت أقدامى أرض إدفينا وأرض كلية الطب البيطري وبداية ألقصيده الأبيات الاتيه:-

كسفتينى يا إدفينا

لقيت شوارعك لما رجلي إتشققت

على أوده أدور والناس عليه إتفرجت

وأنا ماشى أعرج وجزمتى متقطعة

لا أوده لاقى و لا أمنيـــه إتحقــقــت

وشعري منكوش و التراب عليه شبرين

***

و هيئتي متبهدله وشكلي م المســـاكيـــن

و الله لوشفتنى يصعب عليك حـــــالـــى

و لا ح تعرف تحوش منك دموع العيــن

***

وبعد سرد أحداث كثيرة حصلت لي أشكو فيها معاناتي من إدفينا و أهل إدفينا وكلية الطب البيطري بإدفينـــا ختمــت قصيدتي بالفقرتين الآتيتين و أستسمحك أخي القارئ إذا كنــت من أهالي إدفينا أو من محبي إدفينا وكلية الطب البيطري بها أن توجل غضبك منى عند قراءتـــك الأبيـــات القادمـــة إلـــى الفصلين القادمين من هذا الكتاب فقد تجد ما يهـدئ خـــاطرك ويثلج قلبك تجاهي و أعتذر لك ولكلية الطب البيطري بإدفينـــا مقدما على نهاية قصيدتي هذه:

مالك يادنيا كده نازله ف تلطيشـــــى

مررتى ليه لقمتى سودتى ليه عيشـــى

لا عملت فيكى معاصى ديما أنا بحالي

بصيت لقيت الجزم بترف على راسي

ونزلت فى الشارع أدعى أقول ياربى

زلزال يهد البلد بركان ولا يهـــــدى

حريقه تاكل فـ إدفـــيـــنا وأهــــاليها

ومصيبة تقضى على الطب البيطري

لأنه هوه السبب فى عذابى وفى غلبى

وما كدت أنتهي من قصيدتي حتى قامت قيامة الضيوف في الحفل ولم تقعد فالطلبة يصفقون بحرارة و الأهالي مـــنهم من يضحك ومنهم من يأخذ الموضوع بعصبية و كـــان أحـــد المعيدين من أهل القرية فصعد المسرح وحاول ضربي مازحا فإلتف سلك الميكروفون علي قدمه فوقع علي خشبة المســـرح فاعتقد بعض الأهالي البعيدين عن خشبة المســـرح أن هنـــاك معركة حينما إندفع بعض المتفرجين لإنقاذ الطبيب الذي وقـــع فأخذ الموضوع منحنى خطيراً وأخذ الطلبة يتراشقون الكـــلام مع بعض الأهالي وتجمع حولي بعــض الطلبـــة و حملـــوني ووضعوني داخل أوتوبيس المدينة الجامعية الذي إنطلق بنا إلي محل سكننا، ولم تنام المدينة الجامعية ليلتها وأظن أن الأهالي بالبلد لم يناموا، أما أنا فظللت مستيقظا حتى الصباح وذهبـــت إلى الكلية مبكرا علي غير عادتي حيث أنني كنت معتـــادا أن أنام وقت ذهاب الطلبة إلى الكلية لتلقي المحاضرات صـــباحاً

حيث كنت في ذلك الوقت لا أستطيع حضـور المحاضـرات النظرية وكنت أقوم بتصويرها من الطلبة وفقط أحرص علي حضور المحاضرات العملية و عندما ذهبت وجدت ضـابطا كبيرا يعمل في حرس الكلية يسـتدعيني و ينصـحني بعـدم التجول داخل القرية هذه الأيام حيث أنني معرض للاعتداء من أي مواطن عادي من أهل القرية فالكل عرفني ويتوعـدني و قال أنه مسئول عن سلامة الطلاب وحفظ الأمن داخل الكلية و ليس لحراسة الطلبة خارج الكلية وعندما قلت له أنـه زجـل عادي وأنني كنت أمزح قال لي الأهالي لا يعرفون ذلك فقـط يعرفون أن طالبًا يدعو علي البلـد بـالزلازل و الحرائـق و البراكين ويطلب الموت للأهالي ويتمني الخلاص من الكلية و الغريب في الموضوع كله أن الضابط طلب مني أن ألقي عليه أبيات القصيدة و آخر نصائحه لي خلي بالك من نفسك بعدها إستدعاني أحد الأساتذة وقال لي أنت طالب غبـي إزاى يـا محترم عندك المواهب دي وقاعد في كلية الطب البيطري ثـم طلب مني إلقاء القصيدة عليه كذلك وعندما شـعرت بالنـدم خرجت أتمشي علي شاطئ النهر وجلست في مرسي المراكب الخاص بالكلية فوجدت بعض الطلبة قد تجمعوا حولي يطلبون مني قراءة أبيات القصيدة عليهم و فوجئت أنهم يحفظونها عن

ظهر قلب و أثناء وقوفي معهم مرت بجوارنا إحدي المراكب الشراعية و بها مجموعة من الصيادين فصاح أحدهم في وجهي : حريقه تاكل في ادفينا و أهليها...!! ماشي يا عم .وعندها أحسست حقيقة أن الهزل إنقلب إلي جد و أن الموضوع أخذ منحنى خطيرا جدا و أحسست بالخوف والرعب يسري من داخلي و أصبحت في عشية وضحاها أحد أعلام كلية الطب البيطري بل أحد أعلام قرية إدفينا نفسها !!! وعشت أيامًا من حياة الرعب في إدفينا.

* * *

مطوبس و الليلة الموعودة

مدينة مطوبس سبق وأن ذكرنا أنها إحدى مدن محافظة كفر الشيخ ، فلو وقفت داخل مركب ونظرت إلـى الشـمال لأصبحت مطوبس عن يمينك وإدفينا عن شمالك ، وفى نهاية البلدين شمالا على بعد حوالي كيلو مترين تقريبا تقع قنـاطر ادفينا التي توصل بين البلدين .

وعلى الرغم من أن مطوبس مدينه وادفينا قرية ، تـم تسمية القناطر بقناطر ادفينا وليس قناطر مطـوبس ، ولكـي تعرف الفرق بين البلدين عليك بركوب المعدية ، وهى قارب يستعمله الناس فى العبور بين البلدين ، فـإذا نظـرت جهـة الشمال وجدت القناطر أمامك وإذا نظرت جهة اليمين شـرقا تكاد تشتم رائحة الهريسة ، أو ربما رائحة الفسيخ تهب عليك من جهة الشرق من مدينة مطوبس ، وإذا نظرت عن شـمالك غربا شاهدت أروع منظر قد تتخيله فى حياتك فتجد شـاطئ إدفينا المرصوص بالأشجار تتدلى أغصانها فى الماء ، وتجد قصرا فاخرا له مرسى مراكب خاص به ، هو قصر الكلية أما إذا أدرت وجهك جنوبا فستجد جسر القطار يعبر بين البلدين ،

ولو كنت ذو حظ لمر القطار من فوقك أثناء تواجدك بـالنهر، وشاهدت الموج يتراقص بين ضفتي النهر فرحا لقدوم القطار

وتجد انتماء شديدا من أهالى إدفينا لقـريتهم ، وربمـا انتماء أشد من أهالى مطوبس لمدينتهم ، وعلـى كـل حـال فتعاملاتهم التجارية كثيرة ومتعددة .

وأثناء ركوبي ذات مره بالمعدية ، تعرفت علـى أحـد أهالى مطوبس ، الذي أخبرني أن السكن في مدينة مطـوبس متوافر ورخيص ، فأعجبتني الفكرة ، وتطوع الرجـل فـى مساعدتي حتى وجدت سكنا ، ولكني لاحظت أن السكن عبارة عن منزل بطابقين جاهزين تماما للسكن . فقلت لصاحبه أنـا أريد غرفه واحده صغيره فأعطاني المفتاح ، وقال لي عـش بالمنزل كما تحب وكما تريد ، فاشـتريت سـريرا وبعـض اللوازم و سكنت فى مطوبس وحدي فى بيت كبيـر نظيـف وجميل حيث لا ضوضاء ولا إزعاج من أحد .

وبدأت أشعر بالسعادة و أستمتع بحياتي وأنـتظم فـي دراستي أعبر النيل ، في الصباح متوجها إلى قرية إدفينا حيث الكلية ، وأعود فى المساء للمبيت فى مطوبس . كنت أشـعر بسعادة كبيرة واستقرار نفسي عظيم ، ونسيت كل ما مضى .

أحببت الكلية وأحببت دراستي فيها ، وسارت الأمـور على ما يرام ، إلى أن جاءت الليلة الموعودة . فأثناء إقامتي في مطوبس قد أقمت كثيرا من الصداقات مع الشباب من أهل البلد ومع من هم يكبروني سنا ، الذين كنت ألتقي بهـم فـي المسجد أو في المركب ، وكانوا يدعوني لزيارتهم بمنازلهم ، وكلما دعوت أحدهم لزيارتي رحب كثيرا ووعدني بالزيارة ، وعندما يطلب منى عنوان سكنى ألاحظ تغير وجهـه قلـيلا محاولا إخفاء شيءٍ عنى ، ولاحظت ذلك مرارا وتكرارا .

وأثناء عودتي من صلاة العشاء فى أحدى الليالي ، مر أمامي أحد المعارف فسلمت عليه وألحيت عليه للدخول عندي كي نشرب الشاي ، فرفض رفضا شديدا ، ولكنني وزيادة في الكرم صممت على إدخاله بالقوة فدخل ، وأخذ يتقـدم علـى السلم يبطء وأخذ ينظر إلي الدور الأول بريبة ، ولما صـعدنا إلى الدور الثاني دخل الشقة وهو شـبه يرتعـد ، وتغيـرت ملامحه واستأذنته لعمل الشاي فى المطبخ ، فصمم أن يـأتي معي لنعد الشاي معا ، ولكني وجدت علبة الشـاي فارغـة ، فطلبت منه الإذن لي في الخروج لمدة دقائق لإحضار الشـاي من الدكان المجاور للمنزل ، فرفض رفضا شديدا ، وتحـت تصميمي قال لي سأشرب معك حاجه ساقعة من الدكان بـدلا

من الشاي ، فأخبرته أن الطقس بارد و الشاي أفضل قال لـــي أي حاجه بشرط أن أنزل معك لشـــرائها ، فقبلـــت اقتراحـــه وعندما نزلنا إلى الشارع وكأن الروح دبت فيه مرة أخرى ، وفوجئت به يستأذنني في شرب مياه غازية بالشارع متحججا أن عنده ظرفا طارئا جدا ، وفوجئت به مرة أخرى يترك ثلاثة أرباع الزجاجة ويجرى دون أن أعرف السبب ، وكان لابد لي من وقفه مع نفسي فأسئلة كثيرة جالت بخاطري ، وكان هـــذا هو الضيف الوحيد الذي دخل عندي ثم خرج و لم يعد غيره . فسألت نفسي: منزل كامل بالكهرباء و الماء بخمسة جنيهات فى الشهر فقط ، مع أن الشقة الواحدة فى إدفينا ثمنها يزيد عـــن ثلاثمائة جنيه ! ولماذا صاحب المنزل يحضر كل ليله للسؤال عنى ؟ ويحضر كل صباح لإيقاظي من النوم ، وعندما أنظر له من الشرفة يبادرني بإبتسامة عريضة ويقول الحمد لله ، ثم يتنهد . وبعد بحث شديد في الموضوع و أسئلة كثيرة عرفـــت السر الدفين ، وهو أن هذا البيت سبق وأن انتحرت فيه سيدة ، وذلك بإشعال النار في جسدها منذ عدة سنوات ، ومنـــذ ذلـــك اليوم ولا أحد يسكن في هذا البيت ، وأخبرني بعض الأهالي أن البيت مسكون بكثير من الجن والعفاريت ، وتصدر منـــه أصوات كثيرة وتتحرك من خلال شرفاته أضـــواء غريبـــة ،

ومنذ ذلك اليوم أصبحت أجد صعوبة في النوم بسبب الكوابيس الكثيرة التي أراها فى منامي كل ليلة كلما نمت فى البيت ليلا أو نهارا ، و تأثرت نفسيتي جدا ولكني ورغم ذلك صممت على البقاء بالمنزل مجبرا أخاك لا بطل ، ورضيت بنصيبي وأشهد الله أنني لم أشاهد في البيت أي شيء غريب . ولكن أبت الأيام السوداء أن تتركني في حالي وأبى القلق أن يفارقني ، هذا قدر الله وما شاء فعل ، لعل الله يجعل بعد عسر يسرا .

وأثناء ذهابي إلى الكلية في صباح أحد الأيام ، أخبرني أحد الزملاء أن لي خطاب في غرفة ورود الخطابات بالكلية ، فذهبت فوجدت الخطاب غريب الشكل ، وعندما بادرت بفتح الظرف وجدت فيه دعوة تقول (قصر ثقافة مدينة مطوبس يتشرف بدعوتكم لحضور أمسية أدبية بمناسبة ذكرى رحيل الكاتب "أنور المعداوي") وعجبت ! فمن أين لهم باسمي كاملاً..؟ ، ولكني بسبب إقامتي في مطوبس وجدت أنه من السهل الذهاب إلى اللقاء الأدبي ليلا ، وفعلا ذهبت وتقابلت مع كثير من الأدباء والشعراء وعلى رأسهم الأستاذ(محمود السعدنى) . والذي شد انتباهي بقوة هو شاعر كبير جدا كان يعمل بتجارة القماش ، لو كان هذا الشاعر يعرفه أي أحد لصعد بشعره إلى العالمية . إنه الأستاذ المبدع الكبير(إبراهيم

دقينش) الذي لا يعرفه أحد ولا يسمع به أحد غير أهل بلدته ، ولو أن جامعات الأدب العربي وصل إليها شعره لكتب في شعره آلاف من الرسائل الأدبية ، ونيل في أدبه المئات من شهادات الدكتوراه . ولاحظت أن الإحتفال الرسمي قد إنتهى ولا أحد ينصرف من الأهالي ، أما الذي انصرف فهم كبار المدعوين على المنصة أما الجمهور فظلوا جالسين على كراسيهم فبادرت أنا بالاستئذان والانصراف ، ففوجئت أن الحاضرين يرفضون طلبي للانصراف ، وصاح أحدهم من خلفي (هوه لما العريس يمشى يبقى لازْمة المعازيم ايه !!!) فنظرت أبحث عن ذلك العريس فوجدت الجميع متوجهين بالنظر نحوى ، فسألت من حولي من هو العريس ؟ فرد آخر كان يجلس بجانبي سيادتك العريس ، فضحكت وقلت له مازحا: فأين العروس ؟ فرد بسرعة العروس معاك ونريد أن نسمعها ، قلت له لا أفهم قالوا أنت فاهم كل شئ ، فأقسمت لهم أنى لا أفهم شيئا ويا جماعة فهموني فرد الحاضرون نريد أن نسمع منك (قصيدة إدفينا) كاملة ، فاعتذرت لهم بأنني أحمد الله أن الناس نسيت هذا الموضوع لأنه كان في البداية هزل وانقلب على رأسي بجد ، وكفاني ما حدث لي في إدفينا وفي الكلية ، فقالوا لي لا تخف فنحن جميعا من أهل مطوبس ولا

يوجد بيننا أي مواطن من إدفينا ، فوجهت كلامي نحوهم يـا إخواني لقد كادوا يفصلونني من الكلية بسبب هذه القصـيدة ، وتحت أي ضغط لن أستطيع أن ألقيها أمام هذا الحشد ، لقـد حضرتم لإحياء ذكرى الأديب الراحل ولم تحضروا لسماعي ، فرد أحدهم نحن متعودون على مثل هـذه اللقـاءات الأدبيـة ويحضرها عدد قليل من الأهالي أما اليوم فقد حضرنا جميعـا لاستقبالك ، والدليل على صدق كلامنا أن اللقاء انتهى وخرج الضيوف ومن كان معهم من موظفي قصر الثقافة ولكننا لـم نخرج وراءهم ، لأننا حضرنا في الأصل من أجلك ، وأمـام تشجيع الجميع وجنوني بالشعر اعتليت المنصة وأخذت ألقـى قصيدة (كسفتينى يا إدفينا) ، وكلما أتممت مقطعا منهـا كـان يعلو الهتاف والتصفيق ويطلبون منى إعـادة المقطـع مـن القصيدة عشرات المرات ، حتى لاحظت أن كثيرا منهم كـان يلقى القصيدة معي بأحاسيس و مشاعر كبيرة ، فأهل مطوبس أهل شعر وأصحاب وجـدان ومشـاعر والآخـرون أخـذوا يرددونها ورائي دون أي خطأ ، لا في الكلام ولا في الإلقاء ، وتجاوزت الساعة الواحدة ليلا من ليـالي الشـتاء الطويلـة وانتهيت من الإلقاء وبدأ الناس فـي الإنصـراف مبهـورين بالقصيدة.وبقى حولى ستة أفراد من المعجبين ومـن شـديدي

التحمس وشعرت أنهم يكرهون إدفينا ، وجاء إحساسي أنهم طلبوا مني إعادة المقطع الأخير الذي يطلب الدمار لإدفينا ، ولكلية إدفينا عشرات المرات حتى لاحظت أنهم من شدة إعجابهم بالمقطع الأخير يلحنوه مع أنفسهم ، ويغنوه مع التصفيق بايديهم ، كأنه ملحمة غنائية ، ثم أخذ أحدهم في صب وابلا من السباب وكيل كثير من الشتائم لأهالي إدفينا ، مما سبب غضبي على حسب أنني موجود بالمنطقة من خلال ادفينا وكلية ادفينا...

* * *

اختطاف شاعر الكلية

انتهى الحفل بسلام ودخلنا فى الساعة الثانيــة صــباحا واستأذنت الواقفين حولي بالانصراف فتقدم أحــدهم خطــوة نحوى وأحني رأسه باحترام ووقار شديدين وخفض صوته ثم قال(ممكن تسمح لنا نعزم سيادتك على حاجة حلــوه) أقصــد طبق هريسة فى هذا المحل المقابل لنا فاعتــذرت بحجــة أن الوقت متأخر وفوجئت بباقي المجموعة ترحب بالفكرة وتحت إلحاحهم قبلت العزومة .

وقبل دخولنا للمحل لاحظت أن أحدهم يهم بالإنصراف ونظر لآخر وقال سأذهب لتجهيز الأمور وخلال دقيقة واحده جاء العامل ليضع أطباق ساخنة كبيرة بها ما لذ وطاب مــن الهريسة والبقلاوة وما شابه وعندها شعرت بجوع شديد وقبل أن تمتد يدي الى الطبق أدهشنى أحدهم وهو يطلب من عامل المحل تغيير الأطباق الكبيرة بإطباق صغيرة حتــى يســتطيع العشاء وكدت أنفجر فى وجهه وأنا أتوجه له بــالكلام الغيــر منطوق وأصرخ فى وجهه بدون صوت فأنا أســمع كلامــي وأفهم غضبى الداخلي ولا أظهر لهم ذلك وتمنيت لو قلت لــه تكلم عن نفسك أنت أنا جائع جدا...لولا الإحراج ، فتمالكــت

نفسي، أما ما زاد سخطي هو رجوع العامل وإحضاره أطباقا صغيرة جدا وكأن بها عينات كما لو كـان سـيتم فحصـها بالمعمل وليس أكلها المهم أكلت عينة الهريسة .

وبعدها حاولت الانصراف للمرة الأخيرة فطلبوا مني أن نتمشى لهضم الهريسة ، وتحت إلحـاح الجميـع وافقـت أن أتمشى معهم قليلا فى اتجاه القناطر فـالجو شـاعري مقمـر والسماء صافية و البرد يمكن تحمله بسبب إلتهـامي لقطعـة الهريسة الصغيرة!! ولكن كان شرطي أن يقوموا بتوصـيلي إلى المنزل عند العودة وتعمدت أن اذكُر لهم اسـم الشـارع ومكان المنزل وتوقعت أن يندهشوا وأن يقول لى أحدهم أنه به عفاريت ولكن أحد منهم لم يعقب فأعدت كلامي وسردت قصة السيدة التي انتحرت حرقا بالمنزل فلم يبدى أحدهم أى تـأثر وفهمت أنهم لا يريدون إخافتى ولكني قرأت فى أعينهم شـفقه خاصة بالنسبة لظروفي ومشينا وطلب أحـدهم منـى سـماع قصيدة(كسفتينى يا إدفينا) مرة أخرى فقلت له أننـى ألقيتهـا الليلة أكثر من مئة مرة ولا داعي لذلك فقـال لـي أحـب أن أسمعها بصوت جهورى وتحت إصرارهم أخذت ألقيها فطلب منى أحدهم أن أرفع صوتي عاليا فرفعت فالطريق زراعي ولا يوجد به بيوت ولا مساكن فقال إرفع صوتك أكثـر فقلـت لا

داعي فأضاف بهدوء شديد فقط أريد أن أثبت لسيادتك أنك لو صرخت وصوتك صعد الى عنان السماء فلن يسمعك أحد فتدخل زميله قاطعا الحوار قائلا يسمعك أو لا يسمعك فلن يفيدك أحد ولن ينقذك أحد نحن الآن خارج العمار وسبق أن كنا في إحتفال كبير حضره المئات من المواطنين وخرجنا مع من خرجوا من الحفل ونظر إلى من يقف أمامه هل عرفت أين ذهب الدكتور عبد الله بعد حفلة الأمس؟؟؟ فرد لا أدرى لقد سافرت بعدها وبت عند أخى بالإسكندرية فقال الآخزون ونحن كذلك غادرنا البلد وعندنا شهود فاندهشت ماذا يقول هولاء ؟؟ أكيد هم يمزحون معي...نعم يمزحون وتوقفت عن المشي محاولا الرجوع إلى مطوبس فقالوا لي لا تحاول الرجوع ولا تحاول مقاومتنا فنحن خمسة أفراد وأنت فرد واحد وكان معهم شخص طويل قوى البنية فوجه أحدهم كلامه له :اقتله وسوف نحفر له حفرة ونخفيه فيها فقال الأخر لماذا هذا التعب ؟ نلقيه فى البحر (يقصد نهر النيل) فنظرت إلى وجوههم التي كانت باسمة جميلة من وقت قليل فإذا هي وجوه غاضبة قاسية وكأنما تم استبدال سامري الليلة أحبائى بجلادين قاسية قلوبهم ولكن حاولت التماسك أمامهم موهما إياهم بانني أفهم أنهم يريدون عمل موقف ضاحك لكنهم أخذوا يتحدثون

أحاديث جانبية بها أصوات وإيماءات غريبة فقطع النقاش صوت أقوي رجل فيهم: أحب أن أقدم لك نفسي وقد أخرج بطاقته الشخصية أنا من إدفينا وقد أخرج آخر بطاقته و قال أنا أيضا من إدفينا وأكمل الثلاثة الباقون نفس الكلام شل تفكيري ولكنى أيقنت فى نفسي أنه لا خلاص لي من هذه المشكلة إلا أنني وجدت لساني ينطلق وبعصبية شديدة أنا كمان من ادفينا وطالب فى كلية الطب البيطري هناك وكنت عايش فيها منذ فترة فقال أضخمهم جثة : (كنت قبل ما تقل أدبك على ادفينا وأهاليها) أقسمت له بالله أنني أمزح وأنْ للشعر قوافي وللقوافي شؤون فرد: كنت تمزح فلماذا تركت إدفينا ؟ أنت قلت أنك تكره إدفينا نظريا وصدقنا أنك لا تكرهنا لكنك أكدت ذلك عمليا و أقمت فى مطوبس وإذا بضوء سيارة تدخل علينا فقررت الاستغاثة بسائق السيارة وإذا بها سيارة ملاكي بيجو صالون طويلة آتية من إتجاه القناطر وقفت لحظة ودارت حولنا وأخذت إتجاه القناطر مرة أخرى قاموا بدفعي فيها دفعا قويا وركب الجميع دون أن ينطق أحد بكلمة واحدة و انطلقت السيارة بسرعة الى القناطر فصاح بى أحدهم لو أصدرت صوتا فوق القناطر فسأقتلك وعبرت السيارة القناطر ذاهبة فى إتجاه إدفينا من البر الغربي للنيل وأنا فى حالة من الرعب و

الهلع الشديد وسارت فى إتجاه قرية إدفينا وعند مـدخل أحـد البيوت الجميلة توقفت أمام حديقة جميلة دفعني أحدهم للنزول من السيارة حتى كدت أقع على وجهي ودخلـت مـن بـاب الحديقة مرعوبا لا أستطيع الكلام بسبب جفاف أشعر به فـى حلقي وإذا بسيدة فى الستين من عمرها بدينة نوعـا مـا ذات وجه ملائكي بيضاء البشرة تعلوه ابتسامة حنونـة لا أنسـاها فاتجهت نحوها ولم أكد أشكو لها ما فعلوه بى وأقول لها:هـل يرضيكى يا حاجة أن.... فقالت لي تفضل واحكي لي ما فعله هؤلاء الشياطين بك فجذبني أحدهم من يدي وقال لها يا حاجه بلاش كده إحنا جايين ندبحوه واللا نضيفوه؟ فقالت له: قطـع لسانك... الدكتور على العين و على الرأس و جذبت بيـدها ستارة قالت يا بني تفضل الطعام ساخن ففوجئت بطاولة كبيرة عليها ما لذ وطاب من الطعام فاندفعت نحوها لـيس بغـرض الأكل فحسب ولكن لوضع نهاية لهـذه المسـرحية الهزليـة المرعبة التي مثلوها علي و للعلم أنني عندما أتعرض للهـم الشديد أو للغم أشعر بالجوع فأخذت ألتهم الطعام التهاما فصاح بي أحدهم و هو صاحب البيت منهم و ابن السيدة الطيبة التي استقبلتني أتعرف ماذا تأكل؟ قلت: أكل بط أو أوز ولكن أفخاذه مصابة بحالة من التشوه هذه أعراض مرضـية تحـدث فـي

الطيور فقال لي: والله ما انت فاهم حاجة أنت تأكل أرانب جبلية يا ذكي و لم يسبق لي أن شاهدت أرانب جبلية أو غير جبلية في مثل هذا الحجم الكبير وسهرت معهم حتى الصباح فقالوا لي نحن نريدك بجانبنا هنا في إدفينا و تبرع أحدهم بشقة كاملة وقاموا في اليوم التالي بمساعدتي بنقل سريري و أغراضي من مطوبس إلي إدفينا بشرط أن تكون ليلة الجمعة لهم حيث يجتمعون عندى كل أسبوع لسماع آخر إنتاجي من الزجل أما المفاجأة التي أذهلتني حقا أنهم جميعهم شعراء أقوياء متمكنون و قراء للفكر والأدب و أيقنت أنه بأمثالهم ترقي الشعوب وترتفع الأمم و لكنهم مدفونون في إدفينا لا يسمع أحد عنهم و منذ ذلك التاريخ أصبحت أعيش رغد العيش وأشعر بالسعادة و دفئ الأحبة، آبائهم آبائي و أخوانهم إخواني وأخواتهم أخواتي أعيش معيشتهم أكل و أشرب معهم أسعد لفرحهم و أحزن لحزنهم أنا إدفينا و إدفينا أنا و أصبحت إدفينا أمي و ملهمتي و لا أستطيع البعد عنها و ينقضي بالثلاثة أشهر و لا أستطيع مغادرتها حتي أن أبي و إخواني كانوا يأتون لزيارتي و لا أذهب لزيارتهم و مع ذلك لم أقطع علاقتي بأهالي مطوبس و في ليلة أصبت بنزلة برد شديدة فأنشدت :

يا ادفينا لمي ولادك وصوتي عليـــه

والطموا يا بنات ف الرايحة والجاية

عشان حبيب البلد إنصاب بسخونية

حبيب البلد أنا طبعا فاليوم لم يصـــبح لـــي أصـــدقاء و أصحاب بل أهل وأحباب فكيف أنساكي يا إدفينا .؟ كيف أنسي رائحة قدرة فول عمي إسماعيل صاحب المطعــم المجــاور لسور الكلية و كيف أنسي عبير فلافله كيف أنســي ألاســطي مميمي حلاق القرية و مجلاته و جرائده التي مر عليها حينــا من الدهر وكلما قرأتها أحسست أنني ذهبت إلي ماضي سحيق أما قهوة كتكت المحاذية لنهر النيل والمطلة عليــه مباشــرة فرائحة السحلب بالحليب تعانق رائحة الحلبــة الحصـــى مــع القهوة في الصباح الباكر لتعطيك رائحة خاصـــة و مميــزة للمكان أما الشاي المضبوط علي نار هادئة هو الوحيد الـــذي يعيد اتزان العقل بين المحاضرات و بعضها و كلما كان هناك فسحة من الوقت، كيف أنسي عمي جابر الصعيدي الذي جاء يسأل عني وابنته ترقد بالمستشفي في حادث قطار و أين أيام الشاعر العظيم قطب البنا الذي جاء و طلــب منـــي ان اقنـــع والدته (كذبا) ان هناك مرضا ينتشر بين الدواجن وعليهـــا ان

تذبح لنا دكر بط عملاق قبل ان يداهمـــه المــرض فيمــوت فابتسمت و قالت (ما يغلاش عليكوا غالي) فداكم البط كلـــه و أكلنا الدكر و أخيرا أقول لأهل إدفينا:

دالناس معادن ومن أحلي المعادن ناس

فيه ناس خلقها صفيح لا دم و لا إحساس

يا دفينا شعــبك وفي الأصـــل و المنبع

مليـــان كـــرم و الذوق بيشع ذي الماس

* * *

ديك و كسكي و علقة ساخنة

تخرجت في عام ١٩٨٥ و بمجرد استلامي لشهادة البكالوريوس تقدمت للحصول علي فرصة عمل بالحكومة المصرية فلم يكن هناك تعينات في ذلك الوقت وأخبروني أن دوري في التعيين لم يأت بعد .

مرت عدة شهور ولم يطلبني أحد للكشف عن أي حيوان أو حتى دجاجة مما أصابني بإحباط شديد وأثناء هذه الفترة كان سوق العمالة أكثره متجها إلي دولة العراق فسألت نفسي لماذا لا أجرب وأسافر إلي بغداد مع من يسافرون ؟ فهناك سوق عمل كبير ومفتوح ومحتاج إلي جميع التخصصات فحزمت كتبي ومراجعي وتوكلت علي الله وسافرت برا مع من سافروا وبمجرد وصولي وجدت فرص العمل لا تعد ولا تحصي في جميع مجالات الطب البيطري .

وأثناء وقوفي ذات صباح في موقف للسيارات قابلت أحد زملاء كلية الطب البيطري بإدفينا وكان يدعي بالدكتور (نبوي) والذي سبقني بالسفر ، فسلمت عليه وحكيت له ظروفي فطلب مني الذهاب معه إلي مشروع دواجن حكومي يعمل به ، وعرفني علي مدير المشروع ، وكان رجلا كرديا يتكلم

العربية بشيء من الصعوبة . فقال له زميلي أنني أخ عزيز عليه وأن عندي خبرة عمل ثلاث سنوات في مشاريع أمهات الدواجن ، والحقيقة أنه لم يكن قد مضي علي تخرجي إلا عدة شهور فقط ، فرحب بي مدير المشروع وتكلم معي كلاما لم أفهمه وربت علي كتفي ، ولما حاولت أن أستوضح منه ما يقول ، أسرع زميلي ووضع يده علي كتفي وسحبني إلي الخلف ، وقال للمدير (ما يخالف.. ما يخالف) ففهمت من سياق الكلام انه يقول له (ماشي كلامك) ثم أوضح لي زميلي أن القسم الذي سأعمل به في المشروع هو قسم الأمهات ، وبه ديوك وإناث تقوم بإنتاج بيض يتم تفقيسه لإنتاج كتاكيت اللحم لتوفير حاجة الأهالي من اللحوم البيضاء .

وأوصلني بسيارة المشروع إلي أحد حقول الدواجن وعرفني علي مسئولة المشروع ، وهي مهندسة زراعية وقال لي شوف شغلك يا بطل وانصرف . فطلبت مني مسئولة المشروع إرتداء البدلة الخاصة بالعمل والحذاء الخاص بدخول العنابر للكشف علي الدجاج لأنها لاحظت نفوق عدد من الدجاج اليوم .

وما أن توجهنا صوب أحد العنابر الضخمة وعند الباب المعدني الكبير ترددت المسؤلة فجأة ثم إستأذنتني في الذهاب

للجظات كي تعود بسرعة فأذنت لها ، ولكني لـم أنتظرهـا فشوقي للعمل كبير فتوجهت بسرعة وفتحـت البـاب وكـان صوت ساحبات الهواء وضغط الهواء شديد فدفعني الباب إلي داخل العنبر وقوبلت بارتطام قوى جدا في وجهي فوقعت علي الأرض وشعرت أن أقداما تدوسني وتركلني وكان هناك سير ماكينة علف أوتوماتيكي يمر داخـل العنبـر فوقعـت عليـه وجرحت يدي وتسلخ لحم زراعي ووقتها لم أفكر فـي شـئ سوي أن احمي وجهي ورأسي بكلتا يدي ، ولم يعطيني أحـد الفرصة لمدة ثوان لأعرف ما حدث لي فقد تم تمزيق أول بدلة عمل أرتديها وسال الدم من جميع أنحاء جسمي خاصة ظهري فقد جعلت وجهي مواجها للأرض وغطيـت رأسـي بيـدي وتركت باقي جسمي مكشوفا وكأن آلاف السـكاكين قـد تـم غرسها في لحمي كل هذا حدث في ثوان معدودة وحضـرت المسئولة التي ذهبت تصرخ وتلطم الخدود و تستغيث بالعمال الذين حملوني في سيارة المشروع إلـى المستشـفي فسـألني الطبيب ماذا حدث لك ؟ فقلت له لا أدري فقال أحـد العمـال الذي رافقني للمستشفي : لقد هجم عليه مجموعة كبيـرة مـن الديوك كبيرة الحجم ظننا منها أنها تدافع عن إناث العنبر ثـم وجه كلامه لي لقد دخلت العنبر يا دكتور دون أن تمسك بيدك

عصا دخول العنبر للدفاع عن نفسك فقد نسـيت وضـعتها خارج العنبر ، وكان يجب عليك أن تسأل عنها قبل الـدخول ولم تنتظر إحضار المسئولة للعصا حيث ذهبت لإحضارها من خارج العنبر. وبدلا من أن أقضي أول أيام عملي في العمـل قضيته في المستشفي .

ورغم جروحي وآلامي المبرحة توجهت إلي العمل بعد يومين ووجهي به الكثير من الضمادات الطبية ولما شـاهدني مدير المشروع أمر بإلحاقي للعمل بقسم الكتاكيت الصغيرة منذ خروجها من البيضة وابتسم وأضاف أنها لا تستطيع العـراك فذهبت وكان مطلوبا مني في ذلك اليوم كما هو محدد بجدول التحصينات تطعيم كتاكيت عمر سبعة أيام بلقاح (هتشنر) عن طريق الرش . وبكل جهل ملأت الرشاشة كلها بالماء المقطر وأذبت زجاجات اللقاح بها وأمضيت قرابة الساعتين في رش الأفراخ الصغيرة حتي أغرقتها جميعا بالماء فجاءت المسئولة تلطم خدودها هي الأخرى _ وكانت المسؤلة فتاة رائعة السحر والجمال ورائعة الأدب في آن واحد _ فكانت تلطم خـدودها بحنان ورفق شديدين وتقول (سوده عليه..سوده عليه) أي يوم أسود عليها ونظرت لي بشفقة وأمعنت النظـر فـي وجهـي المسحوج وربما كانت قد علمت بما حدث لي عند الديوك في

الحقل الآخر وسألتني بلطف : يا دكتـــور أريـــد أن تجيبنـــي بصراحة . هل سبق لك أن قمت بتحصين كتاكيت صغيرة قبل ذلك ؟ وقبل أن أنفعل وأقول لها إنني خبير كتاكيت منذ نعومة أظافري قاطعتني قائلة أنا مثل أختك وكما تقولون يا مصرين (سرك في بير وأنا ستر وغطاء عليك) ، فقلت لها لا.. فقالت هل تعرف ماذا فعلت ؟ . لقد أغرقـــت الكتاكيـــت ولـــم تقـــم بتحصينها وربما يموت معظمها خلال أيام قليلة مـــن البـــرد فعنبر الفراخ يحتاج في رشه إلي لتـــر مـــاء واحـــد ولكنـــك استعملت ملئ ثلاث رشاشات أي استعملت ثلاثين لتر ماء مما تسبب عنه غرق الأفراخ ومستقبلا إصابتها بالزكام قد يـــؤدي إلي نفوقها جميعا ، وربما يتم محاكمتك جنائيا للإهمـــال فـــي العمل، بالأمس كادت تقتلك الديوك واليوم تنتقم أنـــت منهـــا محاولا قتل أولادها فقلت لها باستسلام شديد و مـــا العمـــل ؟ قالت العمل أن أدفع أنا ثمن جريمتك وابتسمت بمرارة و قالت عليك الآن أن تقوم بكتابة مذكرة ضدي تتهمني فيها بإشـــعال ساحبات الهواء فور قيامك برش الكتاكيت وهذا ممنوع طبعـــا لأنه يصيبها بالزكام . فقلت لها أنـــت لـــم تقـــومين بتشـــغيل الساحبات قالت سأقوم بتشغيلها الآن بغرض تجفيف الكتاكيت وأقسم لكم بالله أن هذه المعلومة لم أكن أعلمها من قبـــل ثـــم

أضافت المسئولة : عند التحقيق معي سأقول أن هناك خطـأ كهربائي أدي إلي إشعالها دون قصـد منـي وربمـا ينتهـي الموضوع علي خير .

وأثناء قيامها بمناقشتي رفعت يدها إلي شعرها لتعـدل من وضع خصلة حريرية سوداء انسابت علي جبينها كأنهـا جزء من ليل أحاط بوجه القمر فأنزلق دبوس شعر ووقع علي الأرض فأسرعت بالتقاطـه بأصـابعها فأصـابتني رجفـة وقشعريرة ولما لاحظت إنزعاجي المفاجئ قالت لى: (ايـش بيك) أي ماذا بك ؟ وإذا بي وبدون تفكير أمد لها كف يـدي مقلوبا وقلت لها أنت أحق إنسانة في هذا الكون بمعاقبتي عليك أن تقومين بوخز ظهر يدي بالدبوس حتي لا أفعل هذه الغلطة مرة آخري بل أنت أحق من (أم عبد الله) في فعل ذلك .

وحكيت لها حكاية كتاكيت أمي فضحكت كثيـرا وزاد ضحكها عندما صممت وأقسمت عليها أن تقوم بـوخز يـدي وتحت إصراري الشديد أغمضـت عينيهـا وأدارت وجههـا ووخزتني وخزه لطيفة لم أنس حلاوتها حتى اليوم واكتشـفت ساعتها أن وخز أمي كان عبارة عن نيران تشتعل في يـدي ولا تتجاوزها أما وخز صاحبتي فكان خيوطا من كرة حريرية إنعدمت السيطرة عليها فانفلتت متغلغلة في عروقي مكبلة قلبي

بخيوط ذهبية موصلة جيدة للكهرباء فجعلت قلبـــي يـــرتعش متراقصا من شدة التيار العاطفي الجارف داخل هذه الشـــرنقة الحريرية و لما عجز قلبي عن الإفلات مـــن هـــذه الشـــرنقة إستسلم ودخل في طور العذارى،عذراى الحب الطاهر النقي.

وأخيرا نفذنا ما تم الإتفاق عليه وكتبت فيهـــا مـــذكرة إدانة علي إثرها تم خصم ثلاثة أيام من راتبها نتيجة غلطتـــي بتحصين الكتاكيت ، والغريب في الموضوع أنه في النهايـــة أعطت الأفراخ في حقلها أوزانا مثالية غير متوقعة ولم يمـــت منها شيء يذكر فتم صرف مكافأة لها تفوق ما تم خصمه منها عشرة مرات وبعد فترة أصبحت أنا أهم طبيب في المشروع.

وانتشر صيتي ليتعدي المحافظات الأخرى وزاد الطلب على خبرتي بفضل العطاء والتضحية وحب العمل . فاليوم أنا أسعد طبيب في العالم وحبيبتي عراقية تحبني وتحب كل شئ في مصر إلا المرأة المصرية ، فكانت لا تألو جهدا وبصـــفة دائمة كي تثبت لي أنها أجمل وأرق من كـــل المصـــريات ، والمصريات في نظرها نجوم السينما و التلفزيـــون ممـــا زاد غضبي منها حينما تقوم بإجراء مقارناتها إلا أنني رغبـــت أن أخرجها من هذا السباق فأخذت أحدثها عن الطعام المصـــري وأن المصريات لهن خبرة خاصة في المطـــبخ لا تضـــاهيها

خبرة واستدرجتها حتى سألتني عن أكلة مصرية أحبها وأشتاق لها كي تصنعها لي فقلت لها أنا أحب المسقعة فذكرت لي أنها سبق وأن سمعت عنها وقرأت عنها في أحد الكتب وأنها سوف تصنعها لي غداً إن شاء الله كي أحكم بنفسي هل هي أشطر أم المصريات .

وفي اليوم التالي ذهبت لحقلها بحجة متابعة الحالة الصحية للدجاج فوضعت الطعام علي المنضدة و قالت لي أغمض عينيك فأغمضتها وعندما فتحتها وجدتها ترفع الغطاء عن قالب كبير من الزجاج الحراري مصفوفا به قطع من اللحم كثيرة تشبه جدار من الطوب الأحمر المرصوص فوق بعضه البعض بشكل جميل محاط ببحر من الحساء الأحمر (الدمعة) فسألتها ما هذا ..؟ فقالت لي هل نسيت بسرعة ؟ لك حق لقد تركت مصر منذ فترة إنها المسقعة يا حبيبي كل بالهنا والشفا فقلت لها هل هذه مسقعة ..؟ فقالت نعم فسألتها كيف طبختيها قالت أحضرت ثلاثة كيلوجرامات من اللحم وباذنجانابة واحدة وزنها خمسون جراما فقشرتها وفرمتها وبمساعدة الثوم والبهارات صنعت لك المسقعة ، وماعليك الان إلا أن تأكل وتقول رأيك وكنت جائعا وكعادتي أحب الطعام وأخذت أفكك جدار اللحم السميك طوبة طوبة وأنا

أصرخ في داخلي بصوت مكتوم إلحقيني يا أمي تعالي شوفي المسقعة واللا بلاش وسألتها أين الباذنجان فأنا لا أجد له أثرا ولا للفلفل كذلك فقالت انظر بسرعة فنظرت فإذا ببذرة باذنجان تصعد من القاع إلي السطح متجاوزة قوالب اللحم الأحمر وتحاول الطفو فوق الحساء الأحمر فاستجمعت كل قوايا وتركيزي للإجهاز عليها حتي لا تفلت مني وتغوص مرة آخري ولكنها ما لبثت أن اختفت كسمكة ماهرة إلي قاع قالب الطعام و بعد أن أكلت سألتني ما رأيك في المسقعة ..؟ هل أنا أطبخ أفضل أم المصريات ؟ فقلت لها ضاحكا أنت أفضل بكثير ولكن المصريات يطبخنها بكمية أكبر من اللحم فوعدتني أنها في المرة القادمة ستزيد من كمية اللحم (رحم الله أمي فقد عاشت وماتت و لم تعرف أن المسقعة يتم طبخها بالحم وليس بالفلفل المولع و الباذنجان الأسود) .

وتكرر ذلك مرات عديدة وفي كل مرة تزداد كمية اللحم حتى طلبت مني صنع صنفا آخر لتثبت لي أنها ماهرة فعلا فقلت في نفسي أنها تضع اللحم في طعام ليس محتاجا إليه فماذا لو طلبت منها طعاما تخصصه اللحم فقلت لها أريد أن أكل كسكسى مصري فقالت لي أنها سمعت عن هذا الطعام لكنها لا تحبه لأن اسمه ثقيل علي قلبها و تفضل ألا تسمع

اسمه وعلي العموم فسوف أصنعه من أجل عيونك. هكذا قالت لي . وصباح اليوم التالي لم أتناول أي فطـور ولـم أذق أي طعام فقد وعدتني أنها ستصنع الكسكسى ومـن الطبيعـي أن تصنع باقي مستلزماته وفي الميعاد ذهبت وأنا شـديد الجـوع مقبل غير مدبر فلم أتناول أي طعام حتي الثالثة ظهرا وإذا بها تختفي لبعض الوقت ولما سألتها ماذا تفعلـين ؟ قالـت أقـوم بصنع الشاي أولا فاستنكرت صنيعها للشاي وسـألتها لمـاذا الشاي الآن؟ قالت كي يساعدك في بلع الكسكسى فقلـت لهـا الشاي بعد الكسكسى وليس معه ، وإذا بها تحضر كيسا وتفتحه مخرجة منه أقراصا محترقة الوجه و الحواف فسألتها بعصبية شديدة ما هذا ؟ فقالت هذا الذي تريده ولم تذكر اسمه ، فقلـت لها في دهشة أهذا هو الكسكسى !! قالت أنها سألت أمها عـن الطريقة فلم تعرفها فاستعانت بكتاب (أبلة نظيرة) المصـرية وقامت بفرك العجين ووضعته في مصففاه ووضعت المصفاة داخل ماعون به ماء مغلي فأصبح الطعام عجينا فقالـت فـي نفسها إنه سيئ فكيف آكله فقامت بفرده ووضعه داخل صـاج وأدخلته في الفرن كي ينضج فأحترق وجه وقاع العجين أمـا قلبه فظل عجينا ولم تسويه النار فقلت لها لا يهم.. لا يهم أين الهبر.؟ فقالت لي و ماذا تعني بالهبر فقلت لها يعنـي اللحـم

المحمر بالزبد فقالت أبلة نظيرة تقول أنه يجب إضافة الســكر عليه ولم أجد مكانا يتعلق به السكر ولم تذكر ابلة نظيرة أنــه يجب تناوله مع اللحم فشعرت بالغضب الشديد وقلت لها أنــت كذابة أبلة نظيرة قالت فيه لحمة فأقسمت بالله أن أبلة نظيرة لم تقل لحمة فقلت لها خلاص : كل يوم إعملــي مســقعة إللــى نعرفه أحسن من إللى مانعرفوش. ملعون أبو الكسكسي إللــي بالشكل ده، فلتحيا المسقعة وليحيا المتسقعون!!!

***

رحلة مجهولة إلي جهة غير معلومة

نظرا لظروف الحرب العراقية الإيرانية قامت الحكومة العراقية ببيع مشاريع الدواجن الحكومية للاهالى فتدخل الأثرياء لشراء هذه المشاريع دون أن يكون لهم سابق خبرة بالعمل في مجال تربية الدواجن وفتحت المشاريع أبوابها للتجار والباعة المتجولين وسمحت لهم بدخول المشاريع وكانت المشاريع من قبل ذلك يتم التعامل معها كما لو كانت ثكنات عسكرية ممنوع الاقتراب منها وذلك بسبب إجراءات العزل الوقائي الشديدة منعا لتفشى الأمراض بين المشاريع وتدهورت الحالة لدرجة أن صاحب أحد المشاريع وكان يعمل من قبل في مجال الحدادة وصنع الأفران الحرارية جاءه أحد العمال المصريين يطلب منه تحصينا للدجاج بالمشروع الذي اشتراه حديثا وكان الرجل في حالة سكر شديد ولا يعي ما يقول فقال الرجل للعامل خذ هذه الزجاجات وضعها في برميل مياه التحصين ولما قال له العامل إنها زجاجات عرق وهو نوع من الخمور المشهورة بالعراق قال له هذا هو التحصين وهدده إذا لم يذهب ويستعمل التحصين فسيقوم بضربه وطرده من المشروع كما طرد الطبيب البيطري من قبل فذهب

العامل ووضع في كل برميل زجاجة وبعد فتره لاحظ العاملون في المشروع تحسنا كبيرا في الحالة الصحية للدجاج وزيادة وزنها بشكل ملحوظ وكان هذا بمحض الصدفة فانتشرت شائعة بين جميع المشاريع العراقية أن خمرة العرق أفضل من أي تحصين حتى أن صاحب المزرعة التي كنت أعمل بها طلب مني إضافة العرق للدجاج بدلا من اللقاح فرفضت وتركت المشروع والتحقت للعمل في إحدى الشركات نصف الحكومية والتي كانت ما زالت تتبع بعض الإجراءات الصحية الوقائية وخلال فترة وجيزة من الزمن لا تتعدى أسابيع قليلة إنتشرت أمراض الدواجن بالعراق انتشارا واسعا وانهارت صناعة الدواجن بها ولجأت الدولة للاستيراد فأصبح الدجاج المجمد والبيض يملآن الأسواق حتى أنني وجدت في أحد الأسواق صناديق بيض مكتوب عليها (بيض برازيلي طازج مذبوح على الطريقة الإسلامية) كما لو كانت هذه الجملة ترضي دائما العرب والمسلمين فكتبوها دون أن يعلموا معناها، المهم في الموضوع أنه ذاع صيتي وأصبح لي شهرة واسعة بوسط العراق حتى فوجئت صباح أحد الأيام بأن وزارة الزراعة العراقية تدعوني لحضور مؤتمر علمي لمواجهة أسباب تدهور صناعة الدواجن بدولة العراق فذهبت إلى

المؤتمر لأجد حشدا مـــن الأطبـــاء المصـــرين والعـــراقيين ووجدتني أعرف معظمهم حيث سبق لي أن عملت معهم وكان جو المؤتمر مرعبا فالصمت يكاد يتكلم في قاعة المؤتمر إلى أن وقف رجل ضخم الجثة وقاطع الصمت قائلا أن كل شـــئ على ما يرام وأن مايحدث حاليا في العراق هو عبـــارة عـــن زوبعة في فنجان وكل شئ تمام و أنه تم إعطاء الأوامر واجبة التنفيذ للسيطرة على الموقف وسط صمت الجميع ثم أعطـــى الفرصة للبعض في الكلام فكان أغلب الأحاديث تنحصر فـــي سمعا و طاعة وجارى تنفيذ الأوامر وإذا بالـــدم يغلـــى فـــي عروقي فماذا يقول هؤلاء فمعظمهم يتلعثم ولا يستطيع الكلام وهممت بالوقوف لأبدى إعتراضي فجـــذبني أحـــد الأطبـــاء المصرين وقال لي هامسا أقعد مكانك ح نروح في داهيـــة الله يخرب بيتك هيه كانت بلد أبوك؟ فقلت له نعم كل بلاد العرب بلادي و بلاد أبويا فلاحظ ذلك الرجل الـــذي يجلـــس علـــى المنصة ووجه كلامه لنا :إخواننا المصرين يحبـــون الكـــلام هوايه(يعنى كتير باللهجة العراقية) فوقفت وقلت له نعم ولكن بالحق وتوجهت عنده على المنصة وأمســـكت بـــالميكروفون لأحي الجميع وأقول لهم: لا أحد يستطيع إن ينكر إن مشاريع الدواجن بالعراق أصبحت علوه (وكلمة علوه تعنى سوق كبير

باللهجة العراقية) فلا عزل وقائي ولا تحصينات ولا إحترام لأصول العمل مع إنتشار الجهل بين أصحاب المزارع الجدد الذين لم يسبق لهم العمل بمجال تربية الدواجن من قبل وسردت لهم أسباب المشكلة وذكرت بالتفصيل أن أهم أسباب المشكلة هو قيام أصحاب المشاريع الجدد بالاستغناء عن الأطباء البيطريين واعتمادهم على العمال وذكرت بالتفصيل طرق الحل ومعالجة الأزمة وإذا بالقاعة تشتعل بالتصفيق الحار وبعد أسبوع على هذا المؤتمر وفى صباح أحد أيام شهر يناير وهو شهر الصقيع في العراق وإذا بسيارة فاخرة تقف أمام باب المشروع وكنت ساعتها أتناول الفطور والشاي مع مدير المشروع في حديقة المشروع وإذا به يقف فجاه فانزعجت وقلت له ماذا حدث فنظر في إتجاه باب المشروع الخارجي وقال إنها سيارة خاصة من نوع غير مسموح باستعمالها إلا لأصحاب النفوذ من أهل السلطة بالبلد وإذا برجل طويل القامة مفتول العضلات عريض الصدر يفتح باب السيارة ويدخل علينا وقد أمسك بورقة بيده ينظر فيها ويقول أريد الدكتور عبد الله فجف حلقي من منظره ولم أستطع أن أقول له أنا الدكتور عبد الله فاستجمع مدير المشروع قوته وسأله بعصبية ماذا تريد منه؟ قال إن عندي تعليمات بنقله قال

له إلى أين تنقله؟ فرد الرجل لا أعرف فتغير وجه مدير المشروع وقال له هذا هو وأشار بيده نحوى وكأنه يريد التخلص من المسؤولية فنظر الرجل لي مبتسما وقال: تسمح يا دكتور تحضر أغراضك وتأتى معي فقلت له إلى أين ؟ فلم يجبني فشدني مدير المشروع على جنب وقال لي حاول أن تتعامل معه بهدوء حتى نعرف نهاية الموضوع وعانقني ثم ودعني وداعا حارا قائلا لي ربما لا أراك ولا تراني مرة أخرى فودعته وانصرفت فقد كان يحبني كثيرا؛ ركبت السيارة مع الرجل الغامض وإذا به يتجه إلي طريق مطار بغداد الدولي فقلت له ترحيل خارج العراق؟ قال لا نريد أن نبسطك فانزعجت لان هذه الكلمة بالعراقية تعني الضرب حتى الإغماء ولكنه إسترسل يقول نبسطك بسطه مصري وليس بسط عراقي ووضع يده علي مفتاح مسجل السيارة فإذا بأم كلثوم تشدو حيرت قلبي معاك و أنا بداري و اخبي فانسجم الرجل و قال: و الله حيرت قلبي معاك يا دكتور أنت رجل طيب و أنا أسف لعدم إجابتي لك لبعض الأسئلة لأنه مطلوب مني توصيلك فقط و كلها دقائق و تعرف كل حاجة و إذا بالطريق الصحراوي الممتد ينتهي فجأة أمام بوابة عملاقة قام بفتحها عاملان من الأسيويين من دول شرق أسيا حتى انطلقت

السيارة مسرعة فأخذت أنظر من خلف زجاج السـيارة و إذا بي قد دخلت الجنة نعم دخلت الجنة هنالك علمت أنني سبق و أن توفاني الله و تم بعثي مرة آخري و لكن في الجنة لأري ما لم يسبق لي رؤيته فالطريق الإسفلتي الممتد أمامي ليس كباقي الطرق و جوانب الأسفلت مزروعة بالحصى الملونة ترسـم أشكالا و تصبغ ألوانا علي جانبي الطريق و هنـاك أشـجار غريبة بعضها تشبه نوافير المياه و علي جانبي الطريق تقـع بحيرات واسعة في وسطها قصور زجاجية مبنية من الزجاج الملون العاكس عرفت بعدها انه يمكن للجالس فيها أن يرانا و لكننا لا نستطيع أن نراه و وجدت مرتفعـات و منخفضـات ساحرة فقلت للسائق هل نحن في الجنة ...؟! فأشار لي بيـده كي أسكت ثم تكلم باللهجة المصرية و قال لي هو انت لسـه شفت حاجة ثم توقفت السيارة و طلب مني قائدها النزول أمام احد المباني و بمجرد نزولي أنطلق بالسيارة راجعا ملوحا لي بيده و مودعا و تركني وحدي أقف علي أرض سندسية مغطاة بحشائش من نوع خاص كالسندس الأخضر و رأيت عـاملا يشبه العاملين الذين فتحا لنا الباب الخارجي فأقتربت منه قليلا و إذا به يقف فجأة و يقول لي باللغة العربية: السلام عليكم ثم ذهب يكمل عمله في تسوية الأرض بماكينة يدفعها أمامه بيده

و لم يجيبني عن أي سؤال سواء باللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية و فهمت أنه لا يتكلم أي لغة غير لغة بلده فدخلت المبنى بعد ما تأكدت من عدم وجود أحد به فوجدت صورة كبيرة من السقف إلي الأرض للرئيس الراحل صدام حسين و يقف بجواره ابنه عدي ووجدت مكتبا فخما و لكن ما كان يشغلني في هذه الفترة هو البحث عن دورة مياه و كنت في حاجة ملحة لأن أدخل دورة مياه و لكني بمجرد دخولي إلي دورة المياه شعرت أنه لم يعد لي حاجة لأن افعل ما يفعله الناس لأن فخامة دورة المياه و عظمة تشيدها جعلتني أشك في كونها تستعمل كمرحاض فخرجت مسرعا منها دون أن أعمل شيئًا ولكنني عندما نظرت إلي الساعة بيدي وجدت أن وقت العصر قد اقترب و لم يسبق لي صلاة الظهر فاندفعت إلي دورة المياه مرة أخري و توضأت وصليت علي إحدى السجادات الفاخرة المفروشة علي الأرض و انتظرت كثيرا فلم يأت أحد و هنا شعرت بالخوف الشديد خاصة عندما خرجت أبحث عن العامل فلم أجده لأسأل نفسي أين أنا..؟ لماذا أنا هنا..؟ و ما هي نهاية هذه الرحلة الغريبة..؟ نظرت إلي السماء فإذا بالإجابات كلها تأتي من السماء و إذا بطائرة هليوكوبتر تهبط فوق الحشائش الخضراء حيث كان يعمل

العامل و ينزل منها رجل بدين بعض الشيء يشبه العامل الذي ذهب و يقول لي بالعربية السلام عليكم ثم يسترسل بالانجليزية مرحبا بك في مشروع ١٠ الخاص فسألته من هـو صـاحب المشروع و ماذا هو عمل المشروع..؟ فقال لـي أنـه أكبـر مشروع في العراق لإنتاج دجاج اللحم و انه ملك خاص للسيد الأستاذ (عدي صدام حسين) فأحسست بالصمم يصيب أذني و أعدت له السؤال ليعيد لي نفس الإجابة فوجدت لساني ينطـق بالشهادتين وإنا لله وإنا إليه راجعون وحدثت نفسي ربما تكون نهايتك يا عبد الله في زريبة عدي صدام حسين فالداخل فيهـا مفقود والخارج مولود!!

***

في غرفة عدي صدام حسين الخاصة

أخذ الرجل الذي استقبلني يعرفني بنفسه إنـــه الـــدكتور نسيم بنغالي الجنسية وهو المسئول عن جلـــب وإدارة جميـــع العمال الذين يعملون بالمشـــروع وهـــم مـــن رعايـــا دولـــة بنجلاديش. حيث لاّ يتم السماح لأي مواطن عربي بالغمـــل داخل المشروع ويشترط في العامل أن يكون غير حاصل علي أي شهادة ويفضل من لا يجيد القـــراءة ولا الكتابـــة ويطيـــع الأوامر بلا نقاش . كما أخبرني أن المشروع عبارة عن عدد من العنابر عددها قد يزيد عن المائة وخمس وثمانون عنبـــر سعة العنبر ثلاثون ألف كتكوت فلما أبديت اعتراضي علـــي كبر عدد الكتاكيت في العنبر وأن هذا يسهل من عملية انتشار الأوبئة هز رأسه و لم يجيبني فسألته من الـــذي دلكـــم علـــي إسمي..؟ فرفض واسترسل أن بالمشـــروع مـــزارع ســـمك ومجزرة للدواجن ومصنع بروتين وأعلاف حيـــث يـــتم فيـــه تحويل نافق الدجاج والأسماك إلي أعلاف هذا بالإضافة إلـــي مفقس لتفقيس البيض فسألته من أين تأتون بالبيض لتفقيســـه و مشروعكم هو لإنتاج اللحم وليس لإنتاج البـــيض ؟ فـــرفض الإجابة هنالك تأكدت أنني لا يجب أن اسأل أي ســـؤال أخـــر

فهناك أسئلة لا يجب أن اسألها وإذا بالدكتور نسيم يضع يــده علي كتفي ويقول هيا بنا إلي المطعم .

فركبت سيارة بجواره وذهبت إلي مطعم فخــم داخــل المشروع حيث استقبلني الطباخ وهو يرتدي تنوره وهي عبارة عن قماش ملفوف حول نصفه الأسفل أما نصفه الأعلى فهــو عاري تماما رغم البرد الشديد ليلا ودخل المطــبخ ليحضــر الطعام في الوقت نفسه تركني الدكتور نسيم وذهــب لا أدري إلي أين ؟ . ورجع الطباخ يحمل بيده صينية عليهــا أطبــاق الطعام فلما نظر إلي تغير وجهه ورجع مسرعا بالطعام وغاب ولم يرجع فدخلت المطبخ وراءه كي أستعجله فوجدته جالسا لا يفعل شيئا فحاولت أن أحدثه بأي لغة فلم يفهم فتعاملت معــه بالإشارة فشدني بيده وأجلسني علي كرسي أخضر اللون مــن بين الكراسي الحمراء الأخرى وفي مكان معين وبعدما رجــع الدكتور نسيم بعد ذلك أفهمني أنه ممنوع وليس مــن اللائــق الجلوس علي كراسي العمال وفي مكان العمال فأمثــالي مــن كبار المسئولين لهم كرسي خاص ومكان خاص مع أنني والله العظيم كنت علي استعداد لأن أجلس وأتناول الطعــام علــي الأرض وما إن بدأت في تناول الطعام حتى دخل علي الدكتور وطلب مني الكف عن التهام المزيد من الطعام وأخبرني أنــه

جاءته تعليمات بعدم تقديم طعام لي من (مستر عفيفي) مدير المشروع ولما سألته عن السبب رفض الإجابة لذلك كرهت أن اسأله مرة أخري مع أنني كنت أريد أن اسأله سؤال مهم جدا بالنسبة لي وهو في أي مجال يعمل كطبيب..؟ ولماذا يصاح له بالدكتور نسيم..؟ و لكنه قطع أفكاري عندما طلب من الطباخ إخلاء الطاولة من الطعام وإحضار الشاي لي وله فأحسست بالغضب الشديد و لكني كتمت غيظي .

وبعد حوالي ساعة وأثناء تواجدي مع الدكتور نسيم في استراحته الخاصة بالمشروع حضر الاستاذ عفيفي أو كما يسمونه بالمستر أفيف وكان شابا عراقيا و سيما جدا واستقبلني استقبالا حافلا معطرا بالقبلات الحارة وكان موجودا معه إثنان من المساعدين وقال لي هذه الإستراحة خاصة بك وأدخلني إلي استراحة جميلة مجاورة لاستراحة الدكتور نسيم وقال لي جهز نفسك أنت معزوم الليلة علي العشاء خارج المشروع فدخلت إلي سكني الجديد وأخذت حماما دافئا وصليت المغرب والعشاء وارتديت بدلة وخرجت معهم بالسيارة إلي احد الكازينوهات الفاخرة علي شاطئ نهر دجلة وسط بغداد .

وعندما دخلت معه إلي المطعم وجدت أحواضا زجاجية كبيرة ممتلئة بالسمك وهنا طرأ إلي ذهني موضوع قراءة كان

مقررا علينا دراسته في الصف الثاني الإعدادي وهو لكاتب مصري أمضي ليلة علي شاطئ نهر دجلة في بغداد يأكل السمك المسكوف وهو سمك يتم اصطياده من نهر دجلة وضربه بخشبة حتى الموت ثم تنظيفه وشيه علي الفحم في ليلة بغدادية رشيدية رائعة وطوال عمري لم أنسي هذا الموضوع الذي قرأته من ذاكرتي أما الآن فانا أعيش هذه التجربة بحذافيرها ولا ينقصني سوي كاتب موضوع القراءة كي يكون معي ويحضر هذا العشاء الجميل مرة أخري فقمت باختيار السمكة بنفسي ونصحني السيد عفيفي أن اختار سمكة كبيرة سوداء اللون لم أري مثلها من قبل وكذلك اختار كل واحد من الحضور سمكته الخاصة وتم تجهيز العشاء لأتناول وجبة سمك أسطورية لم وربما لن تحدث مرة أخري لأن هذه تعتبر أغلي وجبة في العراق . بعدها أخذ السيد عفيفي يعرفني بنفسه إنه الصديق الحميم للأستاذ عدي ومدير مشاريعه وأنه حدث في الآونة الأخيرة تدهور كبير في المشروع وفشل الكثير من الخبراء في حل هذا اللغز ففضلوا وبعد دراسة الاستعانة بخبراتي . وهنا كان يجب أن اسأله من الذي عرفكم بي و كيف سمعتم عني ؟ ففوجئت بالسيد عفيفي يجيبني لقد عرفناك من محاضرتك التي ألقيتها في مؤتمر مناقشة أمراض

الدواجن والذي مر عليه أكثر من شـــهر . لقـــد كنـــت مـــن المدعوين في المؤتمر وسمعت كلامك كلمة كلمة ثـــم جـــاءت توصيات المؤتمر الختامية جميعها من محاضرتك لذلك قررنا الاستعانة بخبراتك لحل الكثير من المشاكل التي تواجهنا فـــي المشروع وفشل الكثير من الخبراء في حل لغزهـــا المحيـــر وأهمها تفشي أوبئة خطيرة في المشروع لم يسبق وان أصيب بها المشروع من قبل .

وبعد أسبوع من دراستي للموقف وللظروف التي تحيط بالمشروع تقدمت إلي إدارة المشروع بتقريـــر عـــن أســـباب إنتشار الأمراض بين الدواجن وهما سببان أساســـيان الســـبب الأول هو وجود بحيرات السمك تحيط بعنابر المشروع ممـــا يشجع توارد وإقامة أصناف مختلفة مـــن الطيـــور المحليـــة والمهاجرة وتوطنها بالمشروع خاصة أثنـــاء موســـم هجـــرة الطيور لذلك يجب مكافحة الطيور الغريبة وتركيب شـــبكات علي الشبابيك لمنعها من دخول العنابر . أما السبب الثاني فهو يحدث في الظلام حيث يتنقل العمال البنغال بين عنابر الدجاج كبيرة العمر وعنابر الكتاكيت صغيرة العمر مما يسبب انتقال أمراض كثيرة بين العنابر وبعضها ، لـــذلك يجـــب الـــتحكم

والسيطرة علي حركة العمال ليلا . ففرح جدا مدير المشروع وأمر بصرف مكافأة مالية وساعة قيمة لي فسرني ذلك كثيرا.

وأمضيت حياتي بالمشروع في عمل دائم ليل نهار و في سعادة غامرة وكانت إدارة المشروع توفر لي كل ما احتاجه من غذاء وكساء ومصاريف كي تيسر لي أداء عملي حتى لا أترك المشروع .

وفي يوم من الأيام فاجأني أحد مسئولي الإدارة ويدعي (محمود خطاب) بطلب غريب حيث طلب مني أن أكتب له مذكرة أطالب فيها الإدارة الموافقة علي عدم تربية الكتاكيت الصغيرة بالمشروع لمدة عشرة أيام فسألته عن السبب فقال لي أنهم محتاجين مبلغًا كبيرًا من المال لاستيراد شحنة خمور من الخارج استعدادا لفترة الأعياد وأن سعر الكتكوت حاليا قد ارتفع ارتفاعًا كبيرًا وأن مكسب الدجاجة بعد تربيتها وبيعها للمستهلكين أقل بكثير من مكسب الكتكوت لو تم بيعه يوم خروجه من البيضة وأذكر في المذكرة أن انخفاض درجات الحرارة ليلا تؤدي إلي نفوق أعدادًا هائلة من الكتاكيت بسبب عدم السيطرة عليها لذلك أجد من المجدي بيعها في الوقت الحالي أفضل من تربيتها فرفضت رفضا شديدا .

ولكني فوجئت بالمسئول يهددني ويقول لي نحن نعلم كل شيء تفعله بالمشروع ليلا ونداري عليك ولو وصلت هذه الأخبار للأستاذ (يقصد الأستاذ عدي) فلا نعرف ماذا سيحدث لك لقد تم مشاهدتك تكرارا ومرارا تدخل إلي الغرفة التي تحوي أغراضه الخاصة وتمكث بها كثيرا فاندهشت وسألته أي غرفة ..؟ . أنا لم يسبق لي رؤية الأستاذ ولا أعرف له غرفة بالمشروع فقال لي لقد كنت بالأمس بالغرفة الملاصقة لمكتب إدارة المشروع الرئيسي وعندها أصابني الذهول نعم هناك غرفة فيها أشياء وأجهزة لا يتخيلها عقل وقد دخلتها مرات عديدة ولا أعرف سبب وجود الأجهزة الكثيرة والغريبة بها ففيها مفقسات صغيرة وكبيرة الحجم وهي أجهزة تفقيس بيض وبها كذلك أقفاص طيور ثمينة جدا ربما تكون مصنوعة من الفضة أو من الحديد غير قابل للصدأ وهناك لعب صبيانية كلها علمية تشرح الكون وحركة الكواكب والأقمار وكرة أرضية كبيرة تحتوي علي قارات العالم وأنهاره وبحاره ومحيطاته بصورة بارزة ومجموعة من الدراجات الهوائية والدراجات النارية الأنيقة ومفقسات بيض طيور زينة صغيرة مكيفة الهواء وأجهزة كهربائية كثيرة ومتعددة يعجز عقلي عن استيعابها كل ما يربط بينها أنها خاصة بتفقيس بيض

الطيور والعناية بتربيتها حيث لاحظت أيضا وجـود مسـاقي بلاستيكية و علافات معدنية وأغراض بيطرية مثل حقن وإبر وكأنك في مستشفي بيطري خاص بالطيور وكذلك قطـارات وطائرات صغيرة ولم أكن اعلم سبب وجـود هـذه الأشـياء ولكني عودت نفسي بعد انتهائي من المرور علي العنابر ليلا أن اقضي بها بعض الوقت بغرض اللهو ولم أكـن اعلـم أن صاحبها هو الأستاذ عدي ابن رئيس الدولـة صـدام حسـين وتحت هذه التهديدات وافقت فورا علي طلبهم .

وما إن جاء الليل إلا وجدتني أذهب إلي الغرفـة مـرة أخري وعند دخولي هذه المـرة أحسسـت برهبـة المكـان وبعظمته وأحسست إحساسا غريبا لم اشعر به من قبـل فانـا الآن وحدي في غرفة عدي وهذه لعبه وهواياته لقد كان يحب الطيور مثلي و الفرق الوحيد بيني و بينه أنني كنت أذهب إلي الطيور في الأراضي الزراعية وفوق أشجار الترع أمـا هـو فكانت الطيور تأتي عنده لذلك هو أفضل مني خاصة وأنه ابن الرئيس لا..لا.. بل أنا أفضل منه لأنني أكثر إخلاصا للطيور فقد وهبت حياتي لدراسة علم الطيور وطب الطيور وهو لـم يدرس شيئا عنها وبدأت أمضي معظم ليلي في هذه الغرفة ولم

أعد أخاف منهم فقد نفذت لهم طلبهم فليتركوني أنـــا وشـــأني واحدة بواحدة .

وفي ليلة جلست أمام هذه الأجهزة وفكرت كثيرا فـــي حالي وحال عدي وتصرفاتي وتصرفاته حين كنا صـــغارا و سألت نفسي هل كان عدي يلعب مع كتاكيت طيور الزينة من العصافير والطواويس بقصر أبيه ؟ و هل كانت أمه تنهره إذا رأته يفعل ذلك ؟ و هل سبق له أن قام بخنق بعض الطواويس الصغيرة ؟ وهل قامت أمه (السيدة ساجدة) بوخزه بالإبرة كما كانت تفعل أمي ؟ وهل كانت تشكشـــكه بـــإبرة خياطـــة ؟ أم بدبوس ؟ و هل كان الدبوس مصنوعا من الحديد مثـــل إبـــرة أمي أم كان من الذهب الخالص ؟ لقد أحببت في عدي اهتمامه وحبه للطيور رغم أنني لم أشاهده حقيقة ولا مرة في حيـــاتي ولكن كان سؤالي الملح في صدري هل كان عدي يعـــرف أن أصدقائه المقربون يخونوه ويبيعون الكتاكيت ليتاجروا بثمنهـــا في الخمور ؟ لكنه في النهاية لم يعاني في طفولته ما عانيتـــه في طفولتي فالدنيا حظوظ ...(ناس لها بخت و ناس لها إبرة أم عبدا لله)

***

وليمة على شرف كلب

عندما قامت الحكومة العراقية ببيع مشـــاريع الـــدواجن الحكومية للقطاع الخاص عملت لفترة مسئولا بيطريا لمزرعة تخص أحد المربين العراقيين وكانت المزرعة تقع في مكـــان بعيد جدا عن السكان في قرية قصر الأوسط التابعـــة لقضـــاء المحمودية والمشروع كان عبارة عن مســـاحة شاســـعة مـــن الأراضى الزراعية المستصلحة حديثا مع عدد لابأس به مـــن عنابر الدواجن شمالها أراضى قاحلة إلا من بعض الأشـــجار الصغيرة والنباتات الطبيعية الغير معروفة بالنسبة لـــي أمـــا جنوبها فعشرات الأفدنة المزروعة بالنباتات الحقلية مثل القمح والفول ولا يعرف السبب في هذا المنظر فإذا وليـــت وجهـــي جهة الشمال كأنني أنظر إلى صحراء جرداء قاحلة ممتدة حتى تلامس السماء سطح الأرض وإذا أصابنى الملل نظرت جنوبا فرأيت الأراضى الخضراء الممتدة حتى تلامس الســـماء فـــي نقطه اللانهاية وعشت فترة من الزمن بين المنظرين فإذا مللت منظرا وجهت وجهي صوب الآخر فكلما إســـتهوتنى منـــاظر العصافير و الأوز والبط العراقي بأصـــواتها الجميلـــة جهـــة الجنوب كنت أشعر بسعادة بالغة كان يفوقهـــا جمـــال حيـــاة

الصحراء في الجهة الأخرى التي يعيش فيها مجموعة كبيرة من الكلاب المتوحشة حيث تحيا في مجموعات وكل مجموعة يرأسها كلب كبير شاهدتها كثيرا وهى تطارد الأرانب البرية وكنت أستمتع كثيرا بمشاهدة طائر معين لم أشاهده عن قرب كان يهبط من السماء ليعاكس ويشاكس هذه الكلاب محاولا أخذ رزقه من فرائسها وكانت الكلاب تشن غاراتها علينا ليلا عند المحرقة حيث يتم حرق الدجاج المريض وتجازف بنفسها للحصول على دجاجه مشوية قبل أن تلتهمها النيران فكنا نقذفها بالحجارة أحيانا وفى ليلة من ليالي البرد القارص سمعت حركة بجوار المحرقة فأخذت كشاف الضوء وذهبت فإذا بكلب كبير الحجم يشبه حجم جحش صغير وقد أخذ يحوم حول المحرقة فربما إجتذبته رائحة الدجاج المشوي بها فنظرت إليه وأنا خائف فنظر إلي نظرة غريبة كلها ضعف و إستسلام وجثم على الأرض واضعا رأسه بين قدميه الأماميتين لم يحاول أن يخيفني أو أن ينبح ولاحظت أنه يرتعد من شدة البرد وكأنه يطلب منى أن أتركه في حاله كي يأكل، فرق قلبي له وتذكرت حديث رسول الله(ص) أن رجلا دخل الجنة في كلب سقاه فسألت نفسي لماذا لا أتركه يأكل؟ ولكنى خفت أن يقوم بنشر الأمراض في المنطقة فتركته ودخلت إلى سكنى

وأحضرت له كمية من الخبز وبقايا السمك المشوي وقدمتها له فأخذ يأكل منها وكأنه لم يذق طعاما منذ أسبوع ثم أدار وجهه إلى بركة صغيرة ممتلئة بماء المطر وشرب منها وهز ذيلـــه ومد رجليه الأماميتين في سعادة غامرة وذهب إلى حال سبيله وعندما دخلت إلى العمال وقصصت لهم قصتي مع الكلب قالوا ربما كان هذا الكلب ذئبا وقال الآخرون ربما كان عفريتا وفى الصباح شاهدت العجب العجاب شاهدت الكلب يجلــس علـــى كومه عالية من التراب ويشاهد باقي الكلاب التي تســير فـــي مجموعاتها ويرفع إحدى رجليه الأماميتين ويخفضها كأنه قائد في معركة يعطى أوامره وبمرور الأيام تأكدت أن هذا الكلب كبير الحجم لا ينتمي إلى أحد من مجموعـــات الكـــلاب فـــي منطقتنا وأنه ربما جاء من حيث لا ندرى وعين نفســـه قائـــدا عاما على هذه الكلاب صغيرة الحجم فإذا لم يكن هـــو القائـــد فمن يكون القائد؟؟ ومنذ ذلك اليوم أخذت أفكر في أمـــر هـــذا الكلب كثيرا إنه ليس من أهل المكان ولا يشبه أحدا منهم إنـــه يجلس دائما وحده إنه لا يصادق أحدا إنه وحيد مثلى وغريب مثلى فلماذا لا أصادقة فناديت علية عابثا فإذا بالكلـــب يتبـــع إشارة يدي ويأتي بنفسه وقد إزداد حجمه وعظمت قوته وجلس على بعد مترين منى وأنا على الكرسي غير خائف منه سألته

عن إسمه ونسبه وحكايته فلم يجيبني سألته هل هو جائع فلم يرد قلت له لا بأس لك عندي كرم الضيافة فأحضرت له كمية من الطعام فأخذ يأكل و أنا أحكي له عن ظروفي وأحوالي وحاجتي للعمل التي أتت بى إلى هنا وبعد فترة أصبح الكلب صديقي ألعب معه الكرة أقذفها بعيدا ويأتي بها وعندما حاول أحد العمال اللعب معه غضب وزمجر وكأنه لا يلعب إلا مع الكبار ومضت أيامي معه سعيدة أبحث عنه ويبحث عني حتى ذهبت نهار أحد الأيام إلى معرض بغداد الدولي وعند عودتي ليلا ضللت الطريق وأمضيت أكثر من ساعتين أبحث عن طريق العودة إلى المشروع وأثناء سيرى وكان القمر بدرا إذا بمجموعة كبيرة العدد من الكلاب الضالة تهاجمني وتحوم حولي وتضرب دائرة كبيرة محاولة نهش جسدي فصرت أصرخ صراخا شديدا وأقفز إلى أعلي وأنزل على الأرض حتى تناثرت الكتب من يدي مع بعض أغراضى الأخرى وإذا بكلب ضخم يأتى من بعيد يشق طريقة شقا نحوى وبقوة إندفاع جنونية يبدأ في عقر الكلاب الأخرى ونهشها من أجسادها ثم يهجم علي فعرفت أنه سيأكلني هذه الليلة فوقعت على الأرض مغطيا وجهي ورأسي بمعطف كنت أرتديه وذهبت في شبة غيبوبة لا أعرف إن كانت دقائق كثيرة أم قليلة وعندما أفقت

نظرت فلم أجد سوى كلبي الحبيب صديقي الوفي بجانبي يجمع كتبي المبعثرة من حولي بأسنانه ويضعها بجوار بعضها البعض فلا أستطيع أن أصف فرحتي هذه فأخذت ألملم حاجاتي وأضعها في كيسها ومضيت في طريقي فإذا بالكلب يزمجر وينبح في وجهي كلما تقدمت نحو الطريق وكلما حاولت المشي في إتجاه أخر سبقني إلية ومنعني من السير في إتجاهه إلا إتجاها واحدا عندما بدأت المشي فيه فرح وهز ذيله وسار بجانبي وعندما توقفت لأسير في إتجاه طريق آخر نبح مرة أخرى وكان يجب علي في النهاية أن أفهم أن الكلب لا يسمح لي إلا بالمشي في إتجاه واحد وعندما أخذت أفكر في تصرفاته معي فهمت أن الإتجاه الذي يريدني الكلب أن أمشى فيه هو الإتجاه السليم حيث عنابر الدجاج التي اعمل فيها فمشيت معه حتى وصلنا إلى المكان الصحيح وكانت فرحتي شديدة وعندما هم بالإنصراف إلى شأنه أقسمت علية ألا يذهب وأعددت له وليمة عشاء فاخرة على شرف كلبي الحبيب.

* * *

عفوا... أنا لست سحلية

أثناء إقامتي بدولة العراق كنت أعمل في مشروع ضخم لإنتاج وتربية الدواجن كان مشروعا أوتوماتيكيا عملاقا على أحدث نظام ونظرا لكوني مقيما بالمشروع فكنت المسئول الأول عن الحالة الصحية للدواجن به وكان يعين للمشروع يوميا خفيرا يكون مسئولا عن المشروع منذ انتهاء الدوام الرسمي وحتى صباح اليوم التالي ويكون على هذا النوباتشي التأكد من عدم حدوث أي أعطال فانقطاع التيار الكهربي لمدة ربع ساعة كفيل أن يسبب خسائر بالملايين صيفا عند اشتداد الحرارة أو شتاء عند انخفاضها وكان على كل موظف أن يعمل بالمشروع كخفير علي الأقل مرتين شهريا يكون مسؤلا عن المشروع مسؤولية كاملة ونظرا لكوني غير متزوج وليس عندي عائلة وأقيم بالمشروع فكان لا يمضي يوم أو أكثر حتى ياتى لي أحد الموظفين العراقيين ويستسمحني حتى أقوم بالنوباتشية مكانه نظرا لظروفهم الصحية أو العائلية فكنت أتحمل المسؤولية مكانه وكان يسكن بالمشروع حوالي عشرة أفراد من العمال التابعين لأحدي دول شرق آسيا وهم عمال صيانة مسؤوليتهم التدخل السريع لإصلاح أي عطل طارئ

وهم ممثلون لشركة(بروتيناس) الألمانيـــة مصـــممة ومنفـــذة المشروع وكان لهؤلاء العمال عادات سلوكية وغذائية غريبة ففي نفس الوقت الذي كان يشغلني تجهيز الطعام لنفسي وذلك بتوصية العمال المصرين بشراء ما أحتاجه يوميا مـــن خبـــز وخضراوات ولحوم يحضرونها لي صباح كل يوم معهم كان جيراني من هؤلاء الأجانب نادرا ما يشـــترون طعامـــا مـــن السوق وكان على حد علمي أنهم يصنعون طعامهم بأنفســـهم فهم قلما يأكلون الخبز مثلنا ويستخدمون الأرز المسلوق فـــي كمية كبيرة من الماء بدلا منه وكانت علاقتي بهم محدودة في حدود إبلاغهم عن أي عطل يحدث ليلا في مـــواتير التبريـــد صيفا أو أجهزة التدفئة شتاء فكـــانوا علـــى الفـــور يقومـــون بإصلاحه فهم يتميزون بالنشاط المستمر والإخلاص الدائم في العمل وكان داخل المشروع حوض كبير ملئ بالماء محاطـــا بالحجارة من جميع الاتجاهات ولا أعرف حقيقة من أين يأتي ماؤه ولكن ما أدهشني مشاهدتي لأحد العمال عند عصر كـــل يوم وحتى المغرب يصطاد فذهبت ذات يوم لإستكشاف الأمر فوجدت معه عددا كبيرا من السنا نير المعدنية الصغيرة جـــدا ووجدته ينصبها فوق الحجارة من حول الحوض ويضع فـــي كل منها قطعة من العجين فسلمت علية وجلست أراقبة محاولا

فهم ما يحدث فهو يتكلم بعض الانجليزية وقليلا من الكلمات المحلية العراقية فطلب مني الهدوء التام وعدم الحركة وكانت المفاجئة انه لا يصطاد بهذه السنانير السمك بل يصطاد السحالي كبيرة الحجم فهو يترك السنانير وعليها العجين المبلل بالماء فيأتي الذباب ليأكل العجين فتأتى السحالي لأكل الذباب فتبتلع السحالي السنارة في فمها وإذا بالرجل يضربها علي رأسها بعصا خيزران رفيعة ويمسك بها ويضعها في كيسه وسألته لماذا يفعل ذلك؟؟ فقال أنهم يأكلونها لان طعمها لذيذ وبعد ذلك تكشف الأمر لي شيئا فشيئا فهم يأكلون القطط والكلاب والفئران ويفطرون بالصراصير مقلية في الزيت وكذلك دود الارض والخنازير البرية التي كانت تاتي المشروع لإلتهام بقايا الدجاج المحترق في محارق المشروع إنهم يأكلون كل شيء وأي شئ وكان العجيب أن حالتهم الصحية ممتازة ولا يعانون من أي مرض وكانت طرقهم كثيرة في إصطياد الكلاب الضالة و القطط بواسطة الحبال،في البداية نظرت للموضوع بامتعاض وقرف شديد منهم ولكن عند التفكير في الأمر وجدت أن فوائدهم عظيمة للمشروع فهم يأكلون القطط السمان التي تتغذى علي الكتاكيت الصغيرة حيث تتسلل إليها من فتحات التهوية بالعنابر مما يسبب لنا

خسائر كبيرة هذا علاوة عن إصطيادهم لمئات مـــن الفئـــران التي تلتهم كميات كبيرة من علف الطيور وتساعد فـــي نشـــر أمراض الدجاج بين العنابر، وحتى هذه اللحظة علاقتي بهـــم علاقة طيبة علي غرار صباح الخير يا جاري أنت في حالـــك وأنا في حالي حتى جاءت الليلة الموعـــودة حيـــث إنقطعـــت الكهرباء في أحد حقول الدواجن ولم يعمـــل مولـــد الكهربـــاء الإحتياطي بها وكان الجو حارا جدا حيـــث إرتفعـــت درجـــة الحرارة ليلا لتتجاوز الخمسين درجة داخل العنـــابر فأخـــذت السيارة وذهبت إليهم وسألتهم عن مسؤل الكهرباء فـــاخبروني انه في المطبخ فدخلت وإذا به واقفا يرتدي شورتا فقط وهـــو شبه عاري ومشغول بطهي طعامه فإذا هو يقوم بقلـــي كميـــة هائلة من الصراصير والسحالي وكان جسده نحيفا لكنه يتمتع بلياقة بدنية هائلة فكثيرا ما شاهدته وهـــو يتسلـــق الجـــدران وعواميد الكهرباء صعودا ونزولا وعندما بدأت أكلمه وأشرح له طبيعة العطل الكهربائي لم أجد منه إكتراثـــا بالموضـــوع وكأنه يفكر في أمر ما شغله وسرق منه فؤاده فهو في حالـــة شبة توهان وعندما رفعت صوتي لأنبهه قال نعم أنـــا فهمـــت الموضوع فقلت له هيا بنا فنادي علي أحد زملائه كي يكمـــل عملية طبخ السحالي والصراصير وقال لي تفضـــل أمـــامي

فسبقته وإذا به ينظر إلي ظهري وقفاي نظرة غريبة فإلتفت له فأدار وجهه بسرعة وتكرر ذلك مني ومنه عدة مـرات ممـا أزعجني كثيرا يا تري في أي شئ يفكر هذا الولد وساورتني الشكوك والهواجس الشيطانية خاصة عنـدما نظـرت علـي الحائط وجدت إحدي الصور الإباحية وسألت نفسي معقـول؟؟ وفي هذه الليلة أكل الغيظ قلبي حتى الصباح ولم أنـام ليلتـي وظللت أفكر في شأن هذا العامل ولسوء حظي تكـرر نفـس العطل في الليلة التالية فذهبت إليه فوجدته ينظر إلى ظهـري بنفس الطريقة وذهبنا إلي حيث العطل وتظاهرت بعدم الإنتباه له فإذا به يطيل النظر إلي ظهري وقفاي فإلتفت إليه فجأة دون أن يدري وجدته يمصمص شفتيه ويشفطهما ويبتلع ريقه وكأنة يتلذذ بشئ ما فلم أفق إلى نفسي إلا ويدي تمسك برقبته النحيفة وتغرس أصابعي الغليظة في عروقها حتى كادت روحة تخرج من بين أصابعي ولم ينقذه مني إلا عدد من العمال المصـرين الذين كانوا موجودين بجانبي ويعملون في المشـروع ولمـا أرادوا أن يستوضحون الأمر مني شرحت لهم ما حـدث وأن هذا الوقح ينظر إلى قفايا ورأسي وظهري بطريقة وقحة مثله وربما كان يفكر في أمر غير أخلاقي وكنا نتحدث بلغة هـي مزيج من الانجليزية و العربية وفجأة صاح الولـد الأجنبـي

لا..لا أنا لم اقصد ذلك بالمرة قلت له وماذا تقصد؟؟ فاسترسل قائلا إنني عندما دخلت عنده في المطبخ ليلة أمس كان يعد الطعام لزملائه وأنه من هواة الطبخ وأنه إشتهي في هذه اللحظة أكل لحم الرأس مع التشريب (والتشريب هو الثريد العراقي وهو ما يعرف بالمصري بالفتة) وان قفايا ورأسي ورقبتي أثارت في نفسه حب أكل لحم الرأس وتمني لو كانت رقبتي ورأسي فوق طبق من التشريب العراقي ليلتهمهم إلتهاما فهدأت نفسي وضحك الواقفون وسأله أحد الإخوة المصريين ماذا تظن طعم رأس الدكتور ورقبته فرد الولد أظنهم طعما طيبا جدا ومنذ هذه اللحظة نصحني إخواني من المصريين بعدم الذهاب عندهم وحدي وأخذ الحيطة فهم قوم يأكلون أي شئ ثم انتشرت بعد ذلك إشاعة بقيام مجموعة من بلديات هؤلاء في إحدي الدول المجاورة بأكل طفل ولم أتأكد من صدق هذه الإشاعة أو عدم صدقها ولكن الذي عرفته جيدا هو أخذ الحيطة والحذر وعدم التعامل مع هؤلاء بمفردي وإلا كان مصيري كمصير القطط والكلاب والسحالي....وعفوا أنا لست سحلية.

***

ليلة الدخـــلة

في ليلة الدخلة وما إن أغلقت باب الشقة لأول مرة على زوجتي دق جرس الباب فذهبت لأفتح الباب فإذا برجل يعانى من ضعف في الإبصار يقف على الباب ويسألني هــل أنــت الدكتور... ؟ فقلت له نعم فقال إن الكبش الخاص به مصـــاب بلكمة وانتفاخ شديد في الكرش وقد قام بعمل إسعافات سريعة لم تجدي له بشئ وكان الرجل مضطربا فاستحيت أن أقول له أنني عريس لم يمضى على دخولي قفص الزوجية أكثر مــن ثلاث دقائق وما زلت أرتدي بدلة الفــرح فطلبــت منــه أن يعطيني فرصة كي أبدل ملابسي وألبس ملابس الشغل حفاظا على بدلة الفرح التي لم أرتديها إلا مرة واحدة كانت هذه المرة _ لان وزني زاد جدا بعد الزواج ولم ارتديها طيلة حياتي بعد ذلك _ ونزلت معه وأنا أتخفى من النـــاس وبقايـــا المعـــازيم وذهبت معه وعالجت الكبش ومن عادتي أنني لا أتقاضي أي نقود من الأهالي في مثل هذه الحـــالات الصـــغيرة ولكننـــي حصلت منه على مبلغ خمسة جنيهات دخلت بها على العروسة وقدمتها لها قائلا لها:الكبش بيصبح عليكي يا عروسة .

ونظرا لتعاملاتي الكثيرة مع الاهالى فمنذ اليوم التـــالي وأنا أذهب لأداء عملي وارتباطاتي البيطريـــة مـــع الأهـــالي فأذهب صباحا وأرجع مساء ولم أحصل على شهر عســل ولا شهر بصل كما يفعل معظم الناس .

وأثناء عودتي ذات يوم إلى المنزل وجـدت زوجتـــي عابسة الوجه غاضبة الملامح حزينة وقبل أن أبـدأ بســؤالها بادرتني قائلة أن أحد كبار السن من الأهالي قد حضــر إلـــي المنزل وسأل عني وسكتت ولـم تعقـب وعنـدما حاولـت الاستفسار منها عن سبب حزنها قالت لي أنه رجل قليل الذوق ليس عنده لياقة ولا أسلوب تعامل فسألتها مستفسرا إنه رجـل عجوز في غاية الأدب أعرفه جيدا وأعرف أخلاقه وسـألتها هل حدث منه شيء لا سمح الله؟ قالت لي : نعـم فأخـذتني الدهشة ، وأضافت أنه عندما فتحت له الباب سألها عنى قائلا لها هل الدكتور موجود يا حاجة ؟ فسألتها وماذا حدث بعد ذلك فاحمر وجهها غضبا وقالت أتريد أن يحدث منه شيئًا أكثر من ذلك؟؟ لقد قال لي بكل وقاحة يا حاجة هل أنا حاجـة ؟؟ أنـا مازلت عندي ٢١ سنة فكيف يقول لي يا حاجة هل أنا شـكلي عجوز لدرجة أنه يقول لي يا حاجة ؟ فقلت لها إن قول الرجل لك يا حاجة من باب الاحترام والتعظيم لأنك زوجة طبيـب ،

وليس من باب قلة الذوق، إنه طيب ومحتـرم ولا يجـب أن تقولين علية مثل ذلك .

ومضي على ذلك عدة أيام وعند رجوعي ذات يوم إلي المنزل قالت لي زوجتي أن الرجـل الطيـب الـذي حضـر الأسبوع الماضي حضر اليوم مرة أخري فقلـت لهـا نفـس الرجل؟ قالت نعم إنه رجل مؤدب ومهذب فقلت لها هل قـال لك يا حاجة مرة أخْرِي أم قال لك يا سكر يا عسل يا جميل يا قمر؟ فردت علي في خجل وهي تضرب الهواء بيدها لا تقـل ذلك فعندما فتحتِ له الباب قال لي صباح الخير كيف حالك يا إبنتي وكلمني بحنان كأنه أبى هذا خلاف أنه أحضر لنا هديـة جميلة فقلت لها ماذا أحضر؟ قالت لا أعرف ولكني أظن أنـه أحضر شيئا من قبيل الطعام ورائحته جميلة جدا لقد قمت بشم هذه الرائحة عشرات المرات انه طعام خاص بالفلاحين دافئ طري الملمس ونظرا لحرارة الجو وخوفا من أن يفسد قمـت بحفظه داخل الثلاجة لحين حضورك حتي نأكله سويا ولكن ما استرعى إنتباهي إلي هذا الطعام إنني كلما شـممت رائحتـه شعرت وكأن الشمس في وقت الأصـيل وتخيلـت أصـواتا وضجيجا وكلما كررت عملية الشم ساورتني هذه الأحاسـيس والأفكار وأضافت أن رائحته رائحة القرية رائحـة الريـف

وأضافت: أنني كلما شممت منة أحسست وكأنني واقفة علي شاطئ ترعة وقت غروب الشمس واسترسلت تشرح لي أحاسيسها الدفينة مما اصابنى بالملل فقاطعتها وطلبت منها إحضار هذا الطعام فركضت نحو الثلاجة وجاءت تحمل بين يديها شيئا دائريا ثقيل الوزن أكثر مما أتوقع كأنه طبق كبير ملفوف بورق جميل من أوراق محلات الجاتوه والحلويات الراقية ثم قالت يا خسارة كنت أريدك أن تشم رائحته وهو دافئ لقد كان طيب الرائحة لقد كان في غاية الروعة فأسرعت وقمت بنزع الورقة الفضية من عليه فوجدت تحتها كيسا من البلاستيك الأسود فقطعته فوجدت ورقة جرائد بها بقع خضراء فأخذت أسابق الزمن لإنتزاعها وهى مبللة وما كدت أبدأ في نزعها حتي بادرتني زوجتي وقالت إنه يقول لك: شوف العينة،أما المفاجأة التي أذهلتني طبق كبير من الصاج ممتلئ عن بكرة أبيه(بالجلة) والجلة هي براز البقر والجاموس الطازج أما الحقيقة فقد ظهرت عندما تذكرت أنني طلبت من الفلاح عينة براز لتحليلها وطلبت منه أن تكون من براز الصباح الباكر فصلى الرجل صلاة الفجر وجاء بالطبق الكبير ليتلقي أول(بطشه) من الجاموسة ويأتي بها كي أقوم بفحصنها ميكروسكوبيا لمعرفة ما بها من ديدان أو طفيليات وكان البراز

دافئ لأنه طازج أما عن كلام زوجتي أنه كلما اشتمت رائحته شعرت وكأنها في الريف فقد كانت ذاكرتها ترجع بها إلى وقت الغروب وقت عودة المواشي من مراعيها ممتلئة بطونها بالطعام وطبعا تقوم بالتبرز على الطريق فيفوح منها رائحة يعرفها كل من عاش في الريف سامح الله زوجتي فقد سدت شهيتي عن الأكل هذه الليلة وسدت نفسي عن الأكل وربما سأل سائل لماذا لم تقم زوجتي بفتح الكيس و التعرف على ما به؟؟ أقول لك أن عادة الزوجات المصريات في بداية الزواج ألا تنظر في جيب زوجها ولا تفتح له خطابا حتى يأتي ويفتحه بنفسه هذا أول أيام الزواج أما بعد ذلك فهي تحسب عليه عدد أنفاسه بل وتعلم عدد الشعر الذي يقصه مقص الحلاق من رأسه ولا حول ولا قوة للرجال من النساء إلا بالله العلي العظيم.

***

سر الجاموسة الغامض

ذات ليلة من ليالي الشتاء جاءني أربعة من الرجال يركبون سيارة نصف نقل مزدوجة الكابينة وعلى الرغم من كونها تكفى لنقل خمسة أشخاص غير السائق وجدتهم وقد اعتلوا سطح السيارة وتركوا السائق وحده يقود السيارة وسألوني هل أنت الدكتور؟ فأجبتهم نعم قالوا تعال معنا إلي قريتنا فالجاموسة مريضه جدا وفى حالة إعياء شديدة فسألتهم ماذا أصابها ؟ فأجابني أصغرهم وكان يضع سيجارة في فمه ويتكلم بعصبية شديدة : لا نعرف فبمجرد انتهاء وردية المصنع الذي نعمل به في مدينة كفر الزيات ورجوعنا إلى قريتنا وعند وصولنا أمام باب البيت إذا بوالدتي تندب حظها وتبكى وأخبرتنا أن الجاموسة مريضة فلم ندخل المنزل ولم نعرف ما الذي حدث؛ وقال من فضلك يا دكتور أحضر أدواتك واركب معنا بسرعة .

فركبت السيارة بجوار السائق وقد اعتلوا سطح السيارة وسارت السيارة بسرعة جنونية في اتجاه القرية لإنقاذ ألجاموسه المريضة فسبب ذلك لي قلقا شديدا وانزعاجا خاصة

وأنني حاولت فهم أي شئ من السائق فلم أستطع لأنـــه أنكـــر معرفته بأي شئ .

ووصلنا إلى قرية (قسطا) والتي تقـــع فـــي منتصـــف المسافة بين مدينتي بسيون وكفر الزيات ووقفت السيارة أمـــام مدخل شارع ضيق ومسدود من الجهتين في آخـــره المنـــزل المطلوب إنقاذ الجاموسة فيه هكذا فهمت حينما توقفت السيارة وهبط الرجال الأربعة من على سطحها وكان الشارع مظلما أما نهايته فكان مدخل البيت مضيئا ووجدت سيدة تجلس أمام المدخل نظرت إلي نظرة غريبة كلها اشمئزاز وقـــرف مـــن أعلى رأسي إلي أسفل قدمي وكررت ذلك عدة مـــرات ولـــم تخلى الطريق كي نمر فقال لها ابنها الأصغر وسعي الطريق يا أمي فنظرت لهم بحزن شديد وقالت لهم لم تجدوا غير هذا الطبيب حتى تحضروه..؟ إن وجهه أسود وقدمه أسود ومجيئه نحس ولست متفائلة بقدومه للمنزل أو دخوله على الجاموسة ، فصمت الجميع وكأن على رؤسهم الطير ولم ينطق أحد إلا أن ابنها الصغير صاح في وجهها (انتى جايباه تناسبيه ولا يعالج الجاموسة) و استرسل : (هو يوم أسود من أوله ثـــم وجـــه كلامه لي : لا مؤاخذة يا أفندي أصل أمي لسانها طويل وعايز

قطعه ووليه كبيرة وبتخرف إمسحها فيه وشوف شغلك. ونزل كلام المرأة نزول الصاعقة علي رأسي فلم أنطق بكلمة واحدة.

ومررت بجوار قدميها و دخلت إلي الحظيرة لأجد جاموسة و حيدة تقف بجوار مجموعة من الأبقار المنهمكة في أكل البرسيم أما الجاموسة فتنظر إليهم بحسرة شديدة و لا يوجد أمامها أي طعام فبدأت بإخراج ميزان الحرارة (الترمومتر) ووضعته في مخرجها لأقيس درجة الحرارة فوجدت درجة الحرارة طبيعية جدا فأمسكت بذيلها لمعرفة ضغط الدم فوجدته طبيعيا كذلك، ثم ضغطت يدي في كرش الجاموسة من الجهة الشمال لفحص حركة وكفاءة الكرش فوجدت كل شيء طبيعي جدا إذن هناك سر في الموضوع ففتحت حقيبتي و أعطيت الجاموسة حقنة من الفيتامينات مع أن الجاموسة شابة وقوية البنية ليس بها أي مرض ، بعدها قدمت لها البرسيم فكادت تبتلع يدي من شدة الجوع فكبر جميع الحاضرين و قالوا اللهم صلي علي النبي و صاح أحدهم : هيه دي الدكاترة و لا بلاش وكأنهم يريدون الاعتذار لي عما صدر عن أمهم من إهانات بطريقة غير مباشرة .

أما الأم فكانت تقف في فتحه باب الحظيرة وعندما كبروا إعجابا بي هزت رأسها اهتزاز المستهزئ من أمر ما

يدور في رأسها ونظرت إلي أولادها بحسرة إشفاقا عليهم ونظرت لي نظرة سريعة خاطفة وقالت بصوت ضعيف وكأنها تحدث نفسها : حقيقي رزق الهبل علي المجانين وأعطتنا ظهرها وذهبت لتجلس في وسط الدار .

هنا زادت حيرتي و لابد أن افعل شيئا فطلبت منهم إحضار علاج من الصيدلية وغلي إبرة الحقنة بحجة أنها وقعت علي الأرض وكنت أبتغي من وراء ذلك البحث في سر ما يحدث فتفرق القوم بين من ذهب لإحضار العلاج و من ذهب لتعقيم الإبرة ومن يساعد الجاموسة في الأكل وكان كل هذا حسب توجيهاتي لأخرج من الحظيرة فإذا بالسيدة قد افترشت الأرض وجلست وسط الدار فوجدت كرسيا صغيرا بجوارها ففكرت بالجلوس عليه فإذا بإبنها الصغير وكان شابا يبلغ من العمر حوالي العشرين عاما يقول لي بصوت مرتفع : تفضل يا دكتور أدخل حجرة الجلوس و عندما أبديت له رغبتي في الجلوس بجوار والدته لحين إحضار العلاج من الصيدلية قال لي يا دكتور إن أمي لسانها طويل و كلامها جارح و يكفيك ما حدث منها فصممت علي موقفي فقال لي أنت حر ذنبك علي جنبك فقط أرجو منك عدم الشكوى بعد ذلك .

فجلست بجوار السيدة و قلت لها بصوت ضعيف كيف حالك يا حاجة ..؟ فقالت لي تسلم يا ولدي من كل سوء و أخذت تحدثني بصوت ناعم حزين رقيق كله أمومة وحنان فهمست في أذنها يا حاجة الجاموسة ليس بها مرض قالت أعرف ذلك، فقلت لها أن وجهي أبيض و ليس أسود وأن دخولي علي المواشي ليس نحس فقالت قطع لسان من يقول عليك ذلك ، قلت لها معاذ الله أنت التي قلتي ذلك قالت من همي و غمي يا بني أنت لا تدري ما بي قلت لها ما بك قالت إحني رأسك قليلا كي لا يسمعنا أحد فأحنيت لها رأسي .

فاسترسلت أن الجاموسة ليس بها أي مرض وهي تعلم ذلك جيدا ولكنها هي نفسها المريضة وأنها اخترعت هذه الرواية لرغبتها في إحضار طبيب آخر ولم أكن أنا المقصود فقلت لها إحكي لي الموضوع من أوله لأخره حتى أفهم .

قالت أنه منذ حوالي العشرة أعوام كانت عند ابنتها في قرية (محلة اللبن) وتقابلت هناك مع طبيب بيطري كان يعالج المواشي من أمراض جلدية وقد ترك لهم كمية كبيرة من المراهم التي اشتروها من صيدلية بشري يعني أن المراهم التي استخدمها هذا الطبيب مراهم يستخدمها الإنسان وعندما لاحظت ظهور إلتهابات جلدية شديدة في جسدها نصحتها

ابنتها بأن تجرب هذه المراهم لأن نتيجتها في علاج المواشي كانت فعالة جدا فقالت أنه بمجرد قيامها بدهن جسـمها مـرة واحدة اختفي جميع ما به من التهابات مؤذية وقالت أنها كانت تحتفظ بعلب فارغة لهذه المراهم في صندوق خاص بها منـذ عشرة أعوام وفوجئت بعروس إبنها الجديدة تـدخل غرفتهـا بغرض تنظيفها و تضع جميع الأوراق المهملة وعلب الأدوية الفارغة داخل الفرن لحرقها والتخلص منها اعتقادًا منها أنهـا فعلت جميلا في خماتها عندما نظفت لها غرفتها فحزنت السيدة حزنا شديدا وجاءت الرياح بما لا تشـتهي السـفن فأصـيب جسدها مرة أخري بنفس الالتهابات السابقة و لكـن بصـورة ضارية فقررت عمل هذه التمثيلية لإحضـار هـذا الطبيـب ففوجئت بقيام أولادها بإحضار طبيبا آخر غير الذي و صفته لهم .

فتأثرت بقصة السيدة المريضة جـدا و كانـت بمثابـة اعتذارا لكل ما حدث منها تجاهي ولكني سألتها ما هو أسم هذا الطبيب فقالت إنه شاب وسيم متوسط الجسم مبتسـم الوجـه يدعي الدكتور عبد الله من مدينة بسيون فقلت لها يا حاجـة لا يوجد في بسيون كلها سوي طبيب واحد أسمه عبد الله فربمـا تقصدين طبيبا آخر فقالت لا إنه صديق حميم لزوج ابنتي وهو

الذي أعطاني اسمه كاملا فقلت لها ما هو اسم زوج ابنتك فذكرت اسمه فقلت لها إنه أعز أصدقائي وما زلت أذهب عنده دائما نعم تذكرتك انك حماته وقد ذكرت لي زوجته شيئا بهذا الخصوص فقالت أنها أكلت معي مرة هناك فقلت: السمك المشوي وسلطة الطحينة فقالت لي الصابونة عندما وقعت في البحر فقد كنا يومها نتناول غدائنا داخل مركب في النيل فتعلقت السيدة العجوز برقبتي و كادت توقعني علي الأرض و قبلت رأسي و هي تبكي من شدة فرحها كأنه سقط عليها كنزا من السماء وصاحت علي زوجات أبنائها وطلبت من كل واحدة طلبا وضعته في السيارة التي تنتظرني كي توصلني إلي بيتي وكنت متعجبًا لكثرة ما طلبت وضعه في السيارة وكدت أسألها ولكني فوجئت بابنها الأكبر يسألها: لمن هذه الأشياء من الأرز و البصل و الثوم والقشدة والجبن والزبد قالت للدكتور فخرج ابنها الصغير مندفعا من الغرفة وسألها بعصبية شديدة للدكتور ..!! قالت نعم ، قال : أبو وش أسود و قدم اسود !! قالت له قطع لسانك إنه ابني ، فسد باب البيت بذراعيه عندما هممت بالخروج وقال عليه الحرام من ديني فيه حاجة بينك يا أمي و بين الدكتور أنا شيفك وأنت تقبلين رأسيه أنت بتحبيه بعد أبويا يا ولية!! فقالت له و هي تضحك أخرس

يا ولد فجلست إليها علي ركبتي ، وسألتها في أذنها لقد قلتـــي رزق الهبل علي المجانين سمعتك وأنا داخل الحظيـــرة و لـــم يسمعك إلا أنا فمن الآن الأهبل و مـــن هـــو المجنـــون..؟ . فابتسمت و هي تبكي من شدة فرحتها وتقبلني وتقول لي لقـــد تمنيت أن تكتب لي إسم المرهم و كان مرهما يعالج الجـــرب فكتبته لها دون أن أفشي سرها لأبنائها وحافظت علـــي ســـر الجاموسة الغامض.

***

أغبى طبيب بيطري في العالم

الخبرة و كثرة الممارسة هي أهم مـا يميـز الطبيـب البيطري عن زميله ونظرا لاتساع رقعة المعرفة والعلم فـي الطب البيطري يلزم الطبيب أن يكون على دراية كاملة بطب الإنسان قبل أن يخوض في طب الحيوان فمن أهـم مجـالات الطب البيطري هي الدراسات المقارنة بين الإنسان والحيوان ثم الحيوانات بعضها وبعض.

ولا أدعى معرفتي بكل شئ في الطب البيطري ولكـن على الأقل أعرف بعض الأشياء في مجال تخصصـي عـن الحيوانات المستأنسة كالبقر والجاموس والجمال والماعز وما شابه ذلك .

أما قصتي هذه فوجه الغرابة فيها هـو اننـى طبيـب بيطري أو المفروض أن أكون كذلك ، فبينما أنا ذاهب إلى أحد مربي الماشية وهو صديق قديم كنت أحب الذهاب عنده منـذ طفولتي وكان يمتلك مزرعة مواشي ومنزل على شاطئ ترعة يحيط بها كمية هائلة من الأشجار المثمرة وغير المثمرة وعند زيارتي له مرة وجدت أولاده مشغولين باللعب بكلب صغير لا يتعدى عمره شهرا إدعوا أنهم وجدوه بين أكوام الحطب وقت

جمع محصول القطن في الحقول ولم يجدوا له أما فربما تاهت عنه أو ربما أصابها أذي بسيارة أو نحو ذلك فبجوار الأرض طريق زراعي مرصوف تمر علية السيارات مسرعة وسألوني ماذا يفعلون لهذا الكلب المسكين حيث يرغبون في تربيته لحراسة ماشيتهم فنصحتهم بتقديم لبن قليل الدسم له مع بعض الأطعمة الخفيفة وكنت أذهب عندهم وأشاهد نشاط الكلب وأراقب نموه واشعر بسعادة غامرة كلما داعبني وداعبته إنه يحبني كثيرا فهو كلب جميل الشكل ناعم الملمس ذيله جميل وفمه طويل قليلا ومرت الأيام ولاحظت نموا هائلا في بنيه الكلب وحجمه وبدأ الكلب يلعب بحرية في الحديقة بجوار حظائر المواشي والدجاج والرومي التي يربيها صاحب المنزل لإستهلاكه الشخصي وربما أصابني منها جانب على فترات حيث كان يتصل بي كلما حانت مناسبة ويعزمني على إحداها وفي يوم ذكر لي صاحب المنزل أن هذا الكلب أخرس لا ينطق ولكنه يسمع وذكي جدا وذو شخصية جبارة فعندما يشاهده كلب كبير على بعد عشرات الأمتار يولي هاربا وأنه بمجرد أن إزداد حجمه وكبر لم يحضر إلى المنطقة أي كلب آخر فالكلاب تشعر برعب شديد إذا رفع رأسه ونظر إليها ورغم ذلك فهو كلب طيب يقضي طوال اليوم في اللعب مع

الأطفال الصغيرة وان أمهاتهم لا تخاف عليهم منه فهم يركبون فوق ظهره ويضربوه بأيديهم مداعبين ولا توجد أي مشكلة وذهبت ذات يوم فوجدت صاحب المزرعة في حالة حزن شديد ويتهم أطفاله الصغار أنهم ظلوا يلعبون مع الكلب حتى جاء ثعلب فأحدث مجزرة بين سكان الحظيرة من الدواجن والأرانب و أضاف أن الكلب لو كان وحده لا يلهو مع الأولاد ما استطاع ثعلب أو كلب متوحش أن يدخل إلى المزرعة و يعث فيها فسادا لذلك قرر صاحب المزرعة ربط الكلب بسلسة حديدية كبيرة أما باب المنزل فسألته هل أنت متأكد من وجود ثعالب في المنطقة وهل رأيت إحدها قبل ذلك؟؟ وهل حدثت مجزرة مماثله من قبل؟ فقال لا ولما كان الكلب بطل قصتنا أخرس لا يصدر منه اى صوت قرر صاحب المزرعة إحضار كلب آخر وربطه داخل المزرعة على بعد عدة أمتار من كلبنا هذا حتى يصدر منه صوت فتخاف الثعالب وأثناء مروري بين الكلبين وجدت الكلب الجديد قد أصيب بحالة هياج شديدة وعصبية هائلة قطع حبله المربوط به وولى هاربًا و الكلب الأول ينظر إليه نظرات غريبة كلها ثقة بالنفس وكأنه يقول لنا:هل هذا الذي سيحرسكم؟ انه جبان ولى هاربا وفي اليوم التالي مر على المنزل أحد الباعة المتجولين من البدو

الرحل سكان الصحراء الذين يمرون لبيع الخراف والمــاعز الصحراوي لاهالى القرية حيث يرعون الأغنام و الماعز في الصحراء ويأتون كل عام لبيع الاضاحى للناس لــذبحها فــي العيد الكبير وعند وصوله إلى باب المنزل نظر إلــى الكلــب وصرخ وإذا بزوجته يغمى عليها وتدخل في غيبوبة ويصرخ الرجل ويستغيث بالناس فياتى الاهالى من كل صوب فيجدوه يصرخ ويقول إن هذا الواقف أمام الباب ذئب ولــيس كلــب وبالصدفة البحتة ظهرت الحقيقة فالواقف أمام المنزل المربوط في سلسلة هو ذئب وليس كلبا وجاء شيوخ القرية وذو الخبرة منهم و أكدوا أنه ذئب وليس كلب فقالت زوجة صاحب المنزل إنه ليس بذئب إن الدكتور البيطري هو الذي أشــرف علــى تربيته منذ أن كان رضيعا وقالــت إبنــة صــاحب المنــزل الصغيرة أنها شاهدته يدخل إلى عشه الأرانب والدجاج مرارا وتكرارا ويلتهم بعضا منها وخافت أن تحكى ذلــك حتــى لا يؤذيه أباها لأنها كانت تحبه كثيرا وتلعب معه هنا إتضــحت الحقائق واحدة تلو الأخرى فالحقيقة الأولى أن الحيوان ذئــب وليس كلب والحقيقة الثانية أنه كان يأكــل طيــور وأرانــب المزرعة والحقيقة الثالثة أنني دكتور بيطري فاشــل ولــيس عندي خبرة في التفريق بين الذئب و الكلب أما الحقيقة الرابعة

فلم أعرفها حتى الآن وهى كيف إستطاع الذئب أن يتحكم في صوته ويخفيه وأن يتحكم في غريزته ولا يـؤذى الرجـل أو أولاده الذين عاش بينهم قرابة العامين أما النهاية فقد اجتمـع أهل القرية وقتلوا الذئب وألقوا جثته على شـاطئ المصـرف وكنت عندما أمر علية و أشاهد جسده يتحلل رويدا رويدا فلا أعرف مغزى لقصته لماذا ربوه صغيرا؟ ولماذا قتلوه كبيـرا؟ وهل هو مذنب؟ وما هو ذنبه؟ وربما المغزى الوحيد لقصـته هو أنه جعلني أغبي طبيب بيطري في العالم.

***

حكايتي مع الخروف

كيفية التعامل مع الجمهور من الأمور الصعبة التي تواجه الطبيب البيطري و أقصد بالجمهور هنا جمهور المواطنين من الفلاحين و مربي الماشية و الأغنام و بحكم عملي أتعامل مع الطيبين منهم و غير الطيبين و الصادقين منهم و غير الصادقين فيجب أن يتحلي الطبيب البيطري بالصبر و أن يكون علي قدر عالي من التحمل و أخذ الحيطة و الحذر عند التعامل ماديا مع الناس و في قصتي هذه الكثير من العبر ففي أحد أيام الشتاء المشمسة إستدعاني بعض الغنامين لإجراء كشف دوري علي أغنامهم فذهبت لهم حوالي الساعة الواحدة ظهرا فوجدتهم جميعا مع أغنامهم مجتمعين في فناء واسع بجوار الأراضي الزراعية و قد جلس الجميع كل مهتم بنفسه فالأغنام تجتر ما أكلته منذ الصباح أي تقوم باسترجاع ما جمعته في بطونها ليعاد مضغه مرة أخري و من ثم ابتلاعه من جديد و أما أصحابها فمنهم من جلس ليتناول طعام الغداء و منهم من ذهب يبحث عن أعواد الحطب و قطع من الخشب لإشعال نار الشاي فلما شاهدوني هب الجميع لمقابلتي والتسليم علي و دعوني لتناول الشاي و بعد الكشف

الروتيني علي الأغنام إذا برجل يأتي علينا و يسلم و يبدأ كلامه معي قائلا أن لديه خروف كبير الحجم يعاني من التهابات رئوية شديدة منذ فترة و فشل العديد من الأطباء في علاجه و يريد مني أن أقوم بالكشف عليه و أصف له العلاج المناسب فطلبت منه أن يحضره لي فذهب إلي بيته المجاور للمنطقة لإحضار الخروف و غاب بعض الوقت فقال لي أحد الغنامين أن هذا الإنسان نصاب و ليس عنده أخلاق و هو معتاد النصب دائما علي الأطباء البيطريين و أكل حقوقهم بقصص وهمية و أن عادته كلما قابل طبيبا حكي له مثل هذه القصة و أقنعه أن الأطباء جميعهم فشلوا في علاجهم و أنه يتمني من الطبيب الموجود أمامه أن يكون فارس الأطباء حتى يبذل قصارى جهده و يعطي أفضل ما عنده من علاج ثم يأخذ خروفه و يمضي بحجة إحضار أتعاب الطبيب و من ثم لا يعود مرة ثانية و يضيع حق الطبيب فقلت للغنامين الواقفين بجواري دعوه و شأنه و لا يتدخل أحد منكم فأنا كفيل بالتعامل معه و تلقينه درسا في كيفية إحترام حقوق الأطباء و أثناء حديثنا شاهدنا الرجل يأتي و معه إبنه يسوق خروفا ضخما أمامه فتقدمت للكشف علي الخروف فوجدت أنه يعاني من كحة قوية و متكررة لا تنقطع و لا توجد فرصة لأن يأخذ

الخروف نفسه بصورة ولو شبه طبيعية فطلبت من صـــاحب الخروف دفع ثمن العلاج مقدما فتغير وجهه وقال لي يا دكتور أنا راجل محترم و لا آكل حقوق الأطباء و يمكنك أن تســأل عني زملائك الأطباء فقلت له هذا لا يمنع من أن تدفع ثمــن العلاج مقدما فأمر ابنه أن يذهب بســرعة إلــي المنــزل و يحضر عشرة جنيهات من والدته و جلس الجميع في صــمت تام لم يقطعه إلا همز و لمز الغنامين و إيماءات تحذرني من أعمال هذا الرجل الأفاق في نظرهم و همس لي احــدهم : لا تعطي العلاج إلا إذا أمسكت العشرة جنيهات بيــدك و خــلال دقائق معدودة عاد الولد و في يده عشــرة جنيهــات جديــدة مفرودة علي أصابعه تحت أشعة الشمس تقطع الشك باليقين و كان بيني و بين الولد بعض الأمتار بينما كان وجــه الرجــل مواجها لي و ظهره مواجها لابنه فلما تأكدت و أيقنــت مــن وصول العشرة جنيها فكرت أن اعمل جميلا فأمسكت بحقنتي و أعطيت الخروف أول حقنة و هي حقنة غير أساســية فــي العلاج عبارة عن فيتامينات لا يتجاوز ثمنها الخمسين قرشــا وكان هدفي من وراء ذلك هو امتصاص غضــب الرجــل و إحتقانه مني و مد الرجل يده ليأخذ العشرة جنيهات من إبنــه فأسرع لي أحد الغنامين و همس في أذني بسرعة (خلي بالك

يا دكتور إحنا حذرناك) فنظرت إلي صاحب الخروف و طالبته بالفلوس التي احضرها له ابنه فإذا به يمسك بجنيه ورق بين أصابعه و يقول لي معتذرا إن ابنه لم يجد أمه في البيت فأحضر مصروف أخته الصغيرة حتى لا أغضب فغضبت جدا لأنني شاهدت العشرة جنيهات بأم عيني فأدار كل واحد من الموجدين رأسه ليخفي ضحكة ساخرة يكتمها بين فكيه فاشتد غضبي أكثر و أخذت منه الجنيه وقلت له أنا أعطيت الخروف علاجه كاملا مع أنني في الحقيقة لم أعطه إلا نوعا واحدا من الفيتامينات و كانت حالة الخروف تحتاج إلي مضادات حيوية و مضادات إلتهاب و علاج كحة فرفضت أن أعطيها له و عندما سألني صاحب الخروف هل هناك علاج آخر فقلت له بسرعة : لا .. لا، فأخذ خروفه و بدأ بالانصراف و إذا به يخرج لسانه إلي الغنامين ولسان حاله يقول لقد نصبت علي هذا الطبيب كما نصبت علي أمثاله من قبل أما أنا فلسان حالي يقول أنني أنا الذي نصبت عليه ولم أعطي خروفه العلاج المطلوب ورجعت إلي منزلي مساءً و لعبت مع أولادي الصغار محاولا نسيان متاعب المهنة في ذلك اليوم إلي أن جاء وقت النوم فذهب كل واحد إلي مكان نومه و كنا ننام جميعا في غرفة واحدة خوفا علي أولادي الصغار

وبعد إستغراقي في النوم إستيقظت علـــي صـــوت الخـــروف المريض في داخل غرفة نومي يكح بصورة متصلة فظننـــت أنني احلم و إذا بزوجتي توقظني من النوم و هي مفزوعـــة و تقول لي أنها تسمع صوتا غريبا في الغرفة فنهضت بســـرعة لأجد ابني الصغير يسعل سعالا شديدا هو نفس صوت كحـــة الخروف فجن جنوني أن ابني يصدر منـــه نفـس الصـــوت المنبعث من الخروف و يفقد القدرة علي التنفس المنتظم مـــاذا حدث و كأن عدوى الخروف إنتقلت إلي ابني و لكن ابني لـــم يلامس الخروف و أمسكت بالتليفون لأتصل بطبيب مشـــهور في الأمراض الصدرية و وصفت له الحالة فقال لي أن الحالة خطيرة و يجب نقل إبني الي المستشفي حتى يحصـــل علـــي تنفس صناعي فأسرعت إلي المستشفي و عندما وصلت و أخذ الطبيب يفحص إبني فوجئت بالطبيب يقـــول لـــي أن الحالـــة الصحية لابني طبيعية جدا فلا يوجد سعال و لا توجد أعراض تنفسية و لا يوجد ضيق تنفس و كأن ما حدث كان كابوســـا و استيقظت منه و رجعت إلي المنزل و حمدت الله و كأن شـــيئا لم يكن و توجهت إلي عملي بالوحدة البيطرية التي أعمل بها و ما إن حاولت دخول باب الوحدة إذا بصـــاحب الخـــروف عابس الوجه باسطا يديه علي الباب محاولا منعي من دخـــول

مكان العمل فمضيت في طريقي غير مكترث به و متجاهله و إذا به يحتضنني بكلتا زراعيه و يبتسم فجأة في وجهي و يقوم بتقبيلي و يقسم بالله أنني أعظم و أصدق و أخلص طبيب تعامل معه في حياته و لما سألته عن السبب قال لي أنه كان لا ينام هو و أولاده في الليل بسبب إرتفاع صوت سعال خروفه المريض لكنه ليلة البارحة نام ولم يستيقظ إلا في الصباح لأن الخروف تم بحمد الله شفاؤه تماما و الفضل يرجع بعد الله في علاجي الدقيق و أنه لما قص القصة علي زوجته و قال لها أنه قام بتبديل العشرة جنيهات إلي جنيه كان في جيبه أعطاه لي قالت له زوجته حرام عليك أعطي الدكتور حقه لأنه تعامل معك بصدق و بدون خيانة لذلك حضر اليوم ليعطيني العشرة جنيهات ثم أدار وجهه و سألني : أريد أن أعرف منك يا دكتور أين ذهبت الكحة التي يعاني منها الخروف ؟ و كدت أجيبه و أقول له لقد ذهبت عندي في صدر إبني و لو لا أن ربطت علي لساني و أغلقت فمي و قلت له لله في خلقه شئون و كان درسا عظيما تعلمت منه أن أكون صادقا مع نفسي و مهنتي و كان يجب علي إما أن أرفض العلاج من أساسه أو أكتب روشته بالعلاج لصاحب الخروف لأن الخروف ليس له ذنب و للخروف رب يحميه.

الشيخ الدكتور

كان الوقت بعد صلاة العصر حين حضر إلي منزلي أحد المعارف وطلب مني الذهاب معه للكشف علي جاموسة ملك أخته في إحدى القرى المجاورة فذهبت معه وبمجرد دخولي إلي المنزل شممت رائحة كريهة جدا وعلمت أن الرائحة منبعثة من نفس الجاموسة المريضة حيث وجدت عليها أكواما من الذباب مختلف الأحجام والألوان فطلبت خرطوما من الماء ومبيدا حشريا وبمساعدة الواقفين تم غسل الجاموسة وقتل الذباب .

وسألت صاحب الحالة عن الذي حدث فأخبرني أن الجاموسة ترقد في مكانها منذ أكثر من ستة أشهر وأنه أحضر لها أكثر من عشرة أطباء فلم يفلح أحدهم في علاجها وأضاف أن الجاموسة رقدت في فناء البيت ولم تدخل الحظيرة منذ ذلك التاريخ وتأكل مكانها بصعوبة وسألته لماذا لم تتخلص منها.!! فقال أموت أنا وأذهب إلي المقبرة قبل أن تموت هي لأنها أعز عندي من زوجتي وأولادي فهي علاقة خمسة عشر عاما وأن الله رزقني من وراءها فبنيت بيتا وتزوجت وأنجبت أطفالا كل هذا من خيرها وأن أولادها وأحفادها تمتلئ بهم القرية .

فكتبت له روشتة الدواء وطلبت منه سرعة إحضـــارها فطلب مني الذهاب معه إلي الصيدلية المجاورة لبيته للتأكد من العلاج ، وكلما احضر الصيدلي نوعا من الأنواع التي كتبتها أشار إليها وقال الجاموسة أخذت من هذا النوع عشر زجاجات ولم تتحسن حتى نفذت جميـــع أنـــواع الأدويـــة الموجـــودة بالصيدلية ولا يوجد نوع إلا وسبق استخدامه .

فطلبت منه الرجوع إلي منزله وحاولت أن أفهـــم منـــه ملابسات المرض بدقة مرة أخري . فذكر لي أنه أثناء عودته بها من الحقل إلي الزريبة في نهاية أحد الأيـــام قابلـــه أحـــد الرجال المشهورون بالحسد ونصحه أن يسرع إلـــي المنـــزل لحلب الجاموسة لأن ضرعها يكتظ من كثرة ما به من لبن بل أن اللبن أخذ يتساقط مـــن ضـــرعها علـــي الأرض فـــدخلت الجاموسة للمنزل وهي تسحب أرجلها ولـــم تســـتطع دخـــول الزريبة فرقدت في فناء المنزل و بدأت حالتها في التـــدهور ، مما سبب لها حدوث تقرحات بالجلد وساعد ذلك تكاثر الذباب عليها و لما وجدت رغبة شديدة في نفس صاحب الجاموســـة وأملا منه في الله كبير أنها سوف تشفي جلســـت و طهـــرت جميع الجروح وطببتها وطلبت من أهل الدار المســـاعدة فـــي نقلها إلي مكان مغلق بعيدا عن الذباب وأعطيتها بعضـــا مـــن

الفيتاميات والمقويات العامة ودعوت الله لها بالشفاء وقـرأت بعض آيات القران الكريم وانصرفت .

وأثناء الليل اتصل بي صاحب الجاموسة تليفونيا وهـو يصرخ ويبكي ففهمت أن الجاموسة ماتت ولكن كانت المفاجأة : الجاموسة وقفت ....الجاموسة وقفت والله وقفت يا دكتور ، هذا ما قاله صاحبها الحاج عبد الله يونس ولم أصدق الرجـل إلا عندما ذهبت لها في اليوم التالي ووجدتها تقف علي أربـع وتأكل البرسيم و الأهل والأحباب يباركون لأهل البيت .

أما صاحب الجاموسة فطلب مني شيئا لم أتوقعه وهـو أن أقوم بتلاوة نفس الأدعية والآيات الكريمة التي قرأتها فـي اليوم السابق علي الجاموسة ، وقد أحضر كمية كبيـرة مـن البخور وأشعلها بجوار الجاموسة فـدعوت لهـا وانصـرفت والأهالي يشدون علي يدي و يقبلونني ويمسحون علي جسدي بطريقة غريبة فسرتها ساعتها أنها نوع من الطبطبة زيادة في الحب ، ولكن اتضح لي بعدها أنها نوع من تلمـس البركـة لأنني أصبحت (الشيخ الدكتور) .

وتأكد لي ذلك عندما حضر عنـدي بـالمنزل سـيدتان كبيرتان في السن وطلبا مني الذهاب معهما لإسـعاف ثلاثـة

عجول من البقر مصابة بالإسهال والهزال الشديدين وعندما شاهدوني وقد أخذت حقيبة العلاج في يدي طلبت مني إحداهما ترك الحقيبة فلا حاجة لها بها والعجول ليست محتاجة إلي علاج بيطري ولكنها محتاجة إلي رقية بيطرية ، لان أصحاب العجول لا يحبون العلاج الدوائي ويرغبون في العلاج بالرقية ، وعندما أظهرت غضبي !! قالت إحداهن (يا دكتور تعالي إرقي العجول وخذ كشفك زيك زى أحسن دكتور) نحن لا نطلب منك إلا الذي فعلته مع جاموسة الحاج عبد الله يونس اللي من محلة اللبن والتي عجز الأطباء في علاجها وعندما حضرت لعلاجها أظهرت فيها كرامات كثيرة مثل كرامات الأولياء مدد يا شيخ الدكاترة مدد، بعد حوالي شهر من هذا الموضوع زاد الطلب علي ليس كطبيب بيطري ولكن كشيخ دكتور ، فما إن ذهبت لإسعاف حالة إلا وطلب الناس مني رقية الحالة أولا ، وربما طلب أحدهم رقية أطفال المنزل أو سيدة لا تنجب او طفلا طال مرضه . وعشت أياما سوداء الناس نسوا فيها أنني طبيب .

حتى اتصل بي صاحب الجاموسة مرة أخري وأخبرني أن نفس الجاموسة تقف وترقد وتعاني من مغص شديد ، وعندما ذهبت اكتشفت أن الجاموسة تعاني آلام الوضع

فساعدتها حتى وضعت ورزقها الله بعجل رائع جميل الشكل وكانت فرحة أهل البيت و الجيران لا تضاهيها فرحة ، وكنت مسرورا جدا حتى طلبوا مني رقية الجاموسة وذلك لإتمام علاجها فرفضت بشدة رغم إصرارهم ، ولما لاحظوا غضبي الشديد قطعت صاحبة الجاموسة الكلام وطلبت مني الحضور في اليوم التالي لتناول الغذاء معهم ابتهاجا بشفاء وولادة الجاموسة ، وهددني صاحب الجاموسة أنه في حالة عدم حضوري سيكون علي دفع حق عرب فوافقت .

وفي اليوم التالي ذهبت واستقبلوني لتناول الغذاء وقد أعدوا وليمة كبيرة من البط السوداني واللحم والحمام وطلبوا مني الجلوس إلي صينية الطعام الموضوعة فوق الطبلية علي الأرض ، وكان منظر الصينية بديعا والطعام له رائحة الزبد الفلاحي والفرن الفلاحي . فطلبت قليلا من الملح و الفلفل الأسود فذهب صاحب المنزل لإحضارهما ، ووجدت أحد الرجال ذوي الطلعة البهية يدخل و يجلس علي الكنبة بجواري وينظر إلي الطعام بطريقة غريبة ويقول تسمح لي أن اجلس لآكل معك يا دكتور ، فقلت له بكل ترحيب تفضل فالطعام كثير ولا يوجد معي سوي صاحب المنزل فقال : لا ..أخاف أن تكون قرفان مني واللا حاجة فقلت له تفضل يا

أخي لا يوجد قرف لا قدر الله ذلك . فقال لا... أخاف تكون قرفان مني و اللا حاجة فكررت كلامي عليه و كـرر نفـس الكلام غير انه أضاف : انا لم أتناول أي طعام منذ ثلاثة أيام ، وهنا دخل صاحب المنزل ونصحني ألا انزعج لأنه الشيخ عبد الرحمن راجل بركة و قامت زوجتـه باستدعائه ليرقـي الجاموسة حينما رفضت أن أرقيها وأن هذا أسلوبه في الكلام ، فوجهت كلامي إلي الرجل و قلت له اجلس يا شيخ بجواري فجلس ، ونظر إلي الطعام و قال إيه القرف ده ..!! انا آكـل بط ..!! استغفر الله العظيم أنا عاوز بيض مسـلوق فخـرج صاحب المنزل مهرولا وطلب من زوجته سلق بيض فقالت لا يوجد عندنا بيض فسمعها الشيخ عبد الرحمن وقال بل يوجـد بيض في السحارة الموجودة داخل المطبخ فاندهشـت السـيدة وقالت حاضر .. حاضر وخلال دقائق معدودة جاء البيض .

وأحب أن أذكر هنا أنني قابلت هذه السيدة بعد عشـرين عاما فأقسمت لي أن البيض لم ينقطع مـن سـحارتها طيلـة العشرين عاما الماضية علي ذلك الموضوع بسبب بركة الشيخ عبد الرحمن .

ونرجع إلي حكايتنا حيث طلب الشيخ عبـد الـرحمن الشرب فجئ له بالقلة فكسرها في الأرض و قال أريـد مـاء

بزهر فأسرع الرجل فاحضر له ماء مضافا إليه ماء الــورد ، وعندما وجدت أن مشاكل هذا الشيخ لا تنتهي ، وخوفا من ان يبرد الطعام بدأت بالأكل وكانت شهيتي كالعادة مفتوحة دائما فغصت في أعماق دكر البط و تغلغلت حتى نخاعه ، وحتى لا أخفي عليك أخي القارئ شيئا أحيطك علما بأني أكلت من دكر البط واللحم العجالي المدفون في برام الأرز المروي بالســمن الفلاحي حتى الغرق ، وقزقزت الحمام وأنا أقول في نفســي بركة يا جامع أنهم قد شغلهم الشيخ عبد الرحمن ، وأكلت أكلة من أكلات ألف ليلة و ليلة . فالطبيب البيطري يحتــاج فــي الشتاء إلي تموين غذائي خاص كي يستطيع مقاومــة إجهــاد العمل والتغلب على البرد الشديد.

وفي ظهر أحد الأيام الممطرة علمت بوفاة الشيخ عبــد الرحمن و أثناء تشيع الجنازة حدث ما لا يتخيله عقل ، حمــل شباب القرية نعش الشيخ في مظاهرة عجت بالألوف المؤلفــة من أحبابه وساروا به داخل الأراضي المزروعــة ووســط الطين فأصبحت القرية تعج بأمواج متلاحقة من البشر البعض يكبر ، والنساء تزغرد ودقت الطبول و ارتفعــت الرايــات ، وكان هناك احتفال لم تشهده المنطقة من قبل إيذانا بميلاد ولي

جديد من أولياء الله الصالحين علي حسب اعتقادهم و أصبح قبره مزارا .

وبعد عدة أعوام استدعيت إلي قرية أبيج (مركز كفر الزيات) وهي نفس قرية الشيخ عبد الرحمن لإسعاف جاموسة مريضة راقدة لا تستطيع الحراك ورابضة في الأراضي الزراعية بجوار مقام الشيخ عبد الرحمن ، وأثناء قيامي بالكشف عليها ، وجدت رجلا طويلا يلبس ملابس بيضاء وقبعة خضراء يمسك بسعف نخلة و يحاول وضعها علي رأسي فزجرته خوفا من أن يصيب سعف النخل عيني فقال لي الأهالي أتركه فإن له ظهرا لأنه مجذوب من مجاذيب الشيخ عبد الرحمن ، والذي يعمل علي خدمة المقام فقلت لهم مجذوب واللا قرفان مني واللا حاجة !! .. فعلموا أنني أمزح معهم علي الشيخ فحذروني ، وقالوا اعتذر وإلا غضب الشيخ عبد الرحمن منك و صب جام غضبه عليك فقلت لهم يا إخواني الموالد حرام و الشيخ عبد الرحمن لم يشاهده أحد يصلي في حياته فقالوا إن له كرامات وكان يتصل بالأولياء و يحدثهم . فقلت لهم إن هذه خزعبلات وإن المجاذيب مجانين وهو درب من دروب التخلف ، وتقدمت لإعطاء الجاموسة الراقدة العلاج وإذا بالجاموسة تقف فجأة و قد أصابها الجنون

وتضرب في صدري بقرونها وتركلني بأرجلها ركلات مميتة حتى أصابتني إصابات بالغة والناس تصيح سامحه يا شيخ عبد الرحمن سامحه إنه جاهل . يقصدون أنني أنا الجاهل وانتشر الخبر بين أهالي المنطقة وزاد هذا من اعتقادهم في الشيخ عبد الرحمن صاحب براءة اختراع أنت قرفان مني واللا حاجة .

ولا تعليق لدي غير إني أسألك يا قارئي الحبيب..... أنت قرفان مني ولا حاجة ...؟

***

دكتور مسالك بيطرية

حضرت في إحدى الأجازات الصيفية لأرض الـوطن فإذا بخطاب ينتظرني من مصلحة التليفونـات يطلـب منـي التوجه لمصلحة عقود تليفونات كفر الزيات، المدينة المجاورة لمدينة بسيون التي أعيش فيها ، مع إحضار بعض المستندات المطلوبة حيث كان والدي وأنا صغير قد قدم لي طلبـا إلـي مصلحة التليفونات لإدخال تليفون بأسمى ولما كانت القـوائم طويلة فقد توقع والدي أن يأتي التليفون بعد أن أكون قد كبرت وأحتاجه فعلا ، وقد كان .

فتوجهت إلي مدينة كفر الزيات حيث مصلحة التليفونات ، فوجدت العشرات من أهالي مدينة بسـيون وقـد افترشـوا الأرض بعضهم ، من يأكل وبعضهم من يشـرب الشـاي ، والآخر يدخن سيجارة ، وقرأت علي الوجوه غضبا و تـذمرا شديدا ، ولما أردت أن اعرف السبب ، قالوا لي : أن الكثيـر من أهالي بسيون قد تقدموا بطلبات لإدخـال تليفونـات وأن عددهم الكبير قد سبب ضغطا شديدا علي الموظفين ، وبسبب الحر الشديد وزحمة المكان العمل يسير ببطئ ، فالتدافع والشد والجذب بين المواطنين يؤدي إلي فوضي كبيرة ، وأن بعضهم

يتردد علي المكتب منذ أكثر من أسبوع ولا يستطيع أن يــتمم الإجراءات بسبب خطأ في الاسم أو نحو ذلك ، ونصحوني أن أقوم بتسليم الخطاب إلي احد الموظفين ثم أجلس معهم لأنتظر حتى ينادون اسمي ، وقال لي احدهم أنت وحظك قد تنتظــر يوما أو قد تنتظر عشرة أيام لا أحد يعرف فالزحــام شــديد ، ففعلت .

وبعد عشر دقائق سمعت أحد الموظفين بالمكتب يصيح بصوت مرتفع الدكتور عبد الله !! فقــال لــي أحــد الــذين يعرفونني من بلدي ربما ينادون عليك يا دكتــور عبــد الله ، فقلت له : مستحيل ، أولا لأنهم لا يعرفونني فهم من مركــز وأنا من مركز آخر ، ثانيا أن الطلب الذي تقدم به والدي منذ زمن بعيد و لم يذكر فيه أنني سأكون طبيبا .

وإذا بالمنادي ينادي مرة أخري الدكتور عبــد الله تــاج الدين ، فاندفعت نحو الموظف وقلت له : نعم يا أستاذ ، فأشار لي أن اذهب إلي رجل كبير السن بشوش الوجه وقف ليســلم علي وقال : تفضل يا بني ، وأجلسني علي كرسي أمامه ثــم طأطأ رأسه ورفعها فجأة وقال : إزيك يا سي عبد الله ، فقلت له : مرحبا يا أستاذي ، فقال : عندي بعض الأسئلة أريــد أن اطرحها عليك ، فقلت له : تفضل ، وظننت أنه سيسألني عن

مرض خاص بالماشية أو ما شابه ذلك ففوجئت به يقول لي : هل السمك البوري من الأفضل شيه علي النار أو قليه في الزيت ؟ ... فقلت له : إنه من الأفضل شي البوري وعدم تحميره في الزيت ، لاحتواء جسمه علي كمية كبيرة من الدهون . فقال لي : طالما أنك تعرف ذلك فلماذا قليت البوري في الزيت ؟ أليس من العجب أن تقول شيئا وتفعل شيئا أخر !!! . فقلت له أنا لم أقم بطهي البوري بنفسي إلا مرة واحدة في حياتي ، وفعلا في البداية قليت بعضه وتداركت الخطأ فشويت الباقي .

فاسترسل قائلا إذن فكيف تصنع من الخيار الأخضر مخلل؟ . فقلت له أضعه في الماء المالح مع قليل من الشطة وبعض فصوص الثوم . فقال لي : أنت لا تفعل ذلك بل أنت تضع الخيار في شرش الجبن الضأن . فقلت له نعم . فقال لي لماذا تضع السكر في الشاي علي مرحلتين ، مرحلة أولي عند صنع الشاي ، ومرحلة ثانية عند شربه . ثم قال لماذا تفعل كذا و كذا.. ؟؟ وأصابتني الدهشة ووقعت في صمت عميق إن الرجل يعرف عني كل شيء و كأنه يعيش معي . فسألته هل تعرفني ؟ . قال : نعم أعرفك . وأعرف عنك كل شيء مع أني لم أشاهدك و لا مرة في حياتي قبل ذلك ، فسألته من

أنت..؟ . فقال أنا والد أحد زملائك المقربين لك في الكلية ، كان يحكي لي عنك كل شيء ، بداية من الأزجال والأشعار التي تؤلفها وحتى طريقة أكلك للطعام ، لذلك عندما قرأت اسمك في كشوف التليفونات المنتظر تركيبها قررت انتظارك والتعرف عليك . وخلال دقائق معدودة حصلت علي عقد التليفون ووجدت الرجل يقول لي وهو يودعني لقد اخترت لك رقم التليفون بنفسي و ستري أن هذا الرقم هو رقم السعد عليك، وسوف تذكرني بهذا الرقم كثيرا وتعرف فضل هذا الرقم عليك . وفعلا أخذت الرقم وبعد فترة من الزمن دق جرس التليفون وإذا بصوت مضطرب يسألني الدكتور موجود..؟ . فقلت له نعم قال حالة مستعجلة جدا يا دكتور تستوجب حضوركم إلي المنزل . أين أحضر لأخذ سيادتكم ؟. فوصفت له مكان سكني وخلال نصف ساعة حضر الشخص المتصل و نزلت معه و كان يسير بسرعة جنونية فسألته ما الأمر ؟ . قال أنها حالة احتباس بول شديدة و الحالة تعاني من الآم مبرحة ولابد من سرعة إسعافها . فقلت له : توقف فورا وأدر السيارة للخلف يجب إحضار قسطرة البول ، وهي عبارة عن أنبوب معدني طويل قد يزيد طوله علي الأربعين سنتيمتر .

فعدنا بسرعة إلي المنزل و أحضرت القسطرة ووضعتها أمامي علي تابلوه السيارة ، فلاحظت أن السائق ينظر إليها برعب و اشمئزاز كبير وسألني هل تنزلون البول بهذه القسطرة الطويلة ؟ . فقلت له نعم فقال ألا تسبب إيذاء لمن يستعملها ؟ . فقلت له لا . قال لو سببت إيذاء أو نزيفا لا قدر الله فماذا تفعل ؟. قلت له هذا لا يحدث أبدا لأنها مصممة للاستعمال في مثل هذه الحالات ولا يحدث منها ضرر . فقال أقنعني كيف تقوم بإدخال كل هذا الطول ، وهل يستوعب جسم الحالة هذا الطول كله فقلت له انه في حالات خاصة قد تستوعب الحالة ما هو أطول من ذلك بكثير ، مثل حالات التلقيح الصناعي، فتغير وجه السائق واحمر وجهه وأذناه . وقال لي في لهجة غضب شديد كلام سيادتك قاسي يا دكتور زيادة عن اللزوم وردودك جاهزة ولا تخجل من هذا الكلام . فقلت له : كيف لي أن أفهمك ..؟ . هذا عملي و أنا مسئول عنه وعن نتائجه أما الآن فعليك إنجاز عملك وتقود السيارة حتى نصل ونسعف حالتك فداس علي بنزين السيارة بغيظ حتى كادت تطير من السرعة ، ووصلنا إلي القرية حيث منزل الحالة . ومن عادتي عندما يتم استدعائي لإسعاف حالة وبمجرد أخذ الإذن بالدخول إلي المنزل تبحث عيناي عن

زريبة المواشي ، ولما كانت الحالة مستعجلة دخلت فورا إلي زريبة المواشي فلم أجد فيها لا بقرة ولا جاموسة ولا حتى حمارة فتعجبت !!

وقبل أن أرفع صوتي مناديا علي صاحب المنزل إذا به يناديني بأعلى صوته أين أنت يا دكتور.؟ قلت له أنا هنا في الزريبة ، فقال لي لماذا دخلت هناك ؟ فقلت له لإسعاف الحالة ، قال الحالة هنا في غرفة النوم ، فقلت له متعجبا غرفة النوم ؟! . قال نعم و جاء ليقتادني إلي داخل حجرة النوم وفي يدي القسطرة . لأجد سيدة كبيرة السن تنام علي ظهرها وبطنها منتفخة ، وتصرخ من شدة الألم ، وتقول إلحقني يا بني إن بطني ستنفجر ، فقلت لها ماذا أفعل لك يا والدتي ..؟ . قالت ألست أنت الدكتور..؟! ، قلت لها نعم أنا دكتور مواشي، فصرخت السيدة ، وتجمع حولنا عدد من النساء والرجال ، وهي تسب ابنها و تقول له أنت بتجيب لأمك دكتور حمير يا ابن الدايخة ..؟ . فلطم الولد وجهه وقال ألست أنت الدكتور علي عبد الجليل أخصائي المسالك البولية ببسيون ؟! . فقلت له غاضبا لا أنا الدكتور عبد الله تاج الذين أخصائي المسالك البيطرية ببسيون . فأحضر دليل

التليفون ، فوجدت رقم تليفوني أمامه اسم الدكتور علي عبد الجليل أخصائي المسالك البولية ببسيون

وهنا تم فك اللغز فالتليفون الذي استلمته من مصلحة التليفونات كان سابقا لطبيب مسالك بولية سافر إلي الخارج وتنازل عن رقمه لمصلحة التليفونات ، وهنا تذكرت كلام الموظف في مصلحة التليفونات والد زميلي عندما قال لي ستعرف قيمة هذا الرقم بعد ذلك ، وكان الموقف صعبًا لم ينقذني منه إلا صراخ إحدى السيدات عندما قالت بأعلى صوتها : الحمد لله جاء الفرج لقد انتهت عملية احتباس البول عند الحاجة بطبيعتها دون تدخل طبيب لحل المشكلة ، وصاحت سيدة آخري مشيرة نحوي بيدها : الراجل ده وشه وش خير لقد جاء الفرج علي قدومه وضحك الجميع و انتهت حالة الإحتقان بالابتسام و السخرية لما حدث .

وبعد أسبوع من هذه القصة اتصل بي نفس الشخص وذكر لي أن عنده حالة احتباس بول حقيقية ، فسألته ماذا تقصد بكلمة حقيقية ؟ . قال إنها حالة إحتباس بول للجاموسة التي يمتلكها ، فذهبت معه ولكن هذه المرة أيضا نسيت القسطرة ... فهل سيحدث للجاموسة ما حدث للسيدة والدته ..؟

ليه لأ !!!!!

مكرونة بالخلطة السرية

جائنى أحد الأصدقاء المقربين ذات يوم يركب سيارته الفاخرة ، وطلب منى الذهاب معه لإسعاف أحد العجول بمزرعة والده. حيث كان العجل يعانى من إحتباس بول ومغص شديد ، فذهبت معه محاولا إنقاذ العجل ، وبعد حوالي أربع ساعات من المحاولات المستميتة أحسست بجوع شديد ، نظرا لما بذلته من مجهود في مساعدة العجل على التبول ، وقبل أن اطلب من المواطن أن يوصلني بسيارته قال لي أنه جائع جدا ولن يستطيع توصيلي قبل أن يأكل ، فلم يتناول أي طعام منذ الصباح حتى الآن ، وطلب منى أن أدخل معه إلى منزلهم لتناول الطعام حيث كان المنزل مجاورا للمزرعة.

وعند دخولي سألت عن والده ووالدته فلم أجد أحدا منهما ، وكان أمام باب المنزل والممر المؤدى له أكياس كبيرة من المكرونة ، ولما سألته عنها قال أنهم يمتلكون مصنعا كبيرا من المكرونة ، ولا يعرف سبب وجود هذه الكمية الكبيرة من أجولة المكرونة أمام البيت وفى مدخله ، وتركني وذهب ليعود وفى وجهه خجل ، وقال لي أنه بحث في الثلاجة فوجد فيها ذكر بط كبير مطهى لكنه لم يجد خبزا أو أرزا ،

وطلب منى الانتظار لمدة ربع ساعة حتى يتمكن مـن سـلق كيس مكرونة للغداء فطلبت منه مساعدته ، خاصة أن المنزل لا يوجد به أحد غيرنا ، فرحب بى وفرحت لأنني أجيد فـن الطهي ، وطلبت منه إحضار كيس مكرونة من الخارج فقـال المكرونة بجوارك ، فقد أحضرتها فعلا ، وعندما بـدأ المـاء يغلى قمت بوضع المكرونة فانبعثت منها رائحة جميلـة لـم أشمها من قبل في حياتي ، فأخذت ملعقة كبيرة وقمت أتلـذذ بتقليب المكرونة ، فكلما مرت الملعقة بداخل الوعـاء أخـذ البخار يتصاعد محملا برائحة جميلة لم اشتمها مـن قبـل ، رائحة يسيل لها لعابي وتفرح لها بطني، وتتراقص لها أمعائي

وفى دقائق معدودة مرت علينا كدهر من الزمن كانـت المكرونة بالصلصة جاهزة ، فقمنا بإدخال دكر البط في الفرن لغرض تحميره ، ووضعنا المكرونة مـع الـبط والسـلطات والمخللات على المنضدة ، ومضى وقت من الزمن لا يكلـم أحدنا الآخر من لذة وروعة المكرونة ، ولم يقطع خلوتنا هذه إلا إشارات وضع المزيد من المكرونة ، ثم نظر كل واحد منا إلى الأخر وقلنا في نفس واحد مافيش مكرونة كمان !! . رد صاحبى وقال لقد وضعت في ماء المكرونة المغلي كيس آخر ، يعنى قمنا بطهي إثنين كيلو جرام ، ومعنى ذلك أن كل واحد

منا قد أكل كيلو جرام تقريبا من المكرونة ، وفجأة نظرنا إلى دكر البط القابع على المنضدة ينظر إلينا ولم يقترب منه أحد أو ربما نسينا الاقتراب منه ، فقال زميلي لي لماذا لم تأكل البط؟ فقلت له ولماذا لم تأكل أنت؟ . فقال لقد نسيت فقلت أنا كذلك ، شئ غريب فعلا أن المكرونة لها طعم خرافي ففيها الصلصة والفلفل والزبد ، فهي وجبة كاملة متكاملة لا ينقصها إلا عنصر البروتين . فلماذا نسينا دكر البط ؟ .

وأثناء خروج صاحب البيت لتوصيلي فوجئت به يضع جوالين كبيرين من المكرونة في شنطة السيارة ، وقال لي هذه المكرونة هدية مني لك ولأصدقائك حلاوة شفاء العجل ، على الرغم من انه ذكر لي للمرة الثانية ونحن في طريق عودتنا انه لا يعرف تفسيرا لوجود هذه الكمية الكبيرة من المكرونة بجوار منزلهم ، وكانت فرحتي كبيرة بالمكرونة ، فأنا من عشاقها ومريديها وأهديت أصدقائي الكثير منها .

وظللت أكثر من شهر لا يدخل فمي طعام سوى هذه المكرونة بسبب طعمها الجميل ، ولاحظت أن وزني ازداد بصورة ملحوظة وملابسي لم تعد على مقاسي ، وما قابلني صديق خلال هذه الفترة إلا وطلب مني المزيد من المكرونة التي سبق وأن أرسلتها له حتى نفذت كمية المكرونة عن

آخرها ، فقلت في نفسي لماذا لا أذهب إلى المزرعة وأطلب المزيد منها ؟ .

فقد أصبحت مدمنا للمكرونة ولم أكد أفكر في الأمر حتى جائني صاحب المزرعة بنفسه هذه المرة ، أعني والد الشخص الذي ذهبت معه في المرة الماضية وأكلت معه المكرونة فسألته عن ابنه فقال إنه سافر في نفس اليوم الذي كنت معه فيه للالتحاق بالقوات المسلحة ولم يرجع من يومها ، وانه يريدني الذهاب إلية لأمر ما يخص المزرعة لا يريد التحدث معي عنه الآن . فذهبت معه فقال لي انظر إلى هذه العجول جيدا وقل لي ماذا تلاحظ ؟ فقلت له ألاحظ أنها في حالة صحية جيدة جدا ، قال لي ما رأيك في الوزن؟. فقلت الوزن ممتاز ، فقال أن معدل الوزن يفوق المعدلات القياسية، فسألته عن نوعية العلف المستخدم ، قال أنه يستخدم نفس نوعية العلف ولكن هناك إضافة جديدة للعلف ، فسألته وما هذه الإضافة ؟ فذكر لي أنه يمتلك مصنعا للمكرونة ، وانه اعتاد إضافة التالف منها إلى علف العجول . ولكن حدثت عنده مشكلة داخل المصنع وهى أنه حدث انقطاع مفاجئ للكهرباء أثناء نهاية فترة عمل المصنع في أحد الأيام بسبب عطل فني دام خمسة عشر يوما ، ولم يتم تنظيف المكائن من مخلفات

العجين طوال هذه المدة بسبب عدم تواجد العمال ، وبعد إصلاح العطل ، جاء أحد العمال المستجدين الذي ليس لديه خبرة ، وعن طريق الخطأ قام بإفراغ الدقيق والماء الساخن داخل أوعية تصنيع المكرونة العملاقة ، وتصادف وجود ملايين الفئران والحشرات في داخل الأوعية ، كانت تتغذى على بقايا العجين الذي لم يتم تنظيفه فيها ، فانسلقت الفئران والحشرات بفعل الماء الساخن وتم خلطها مع عيجبنة المكرونة ، فقام صاحب المزرعة بمعاقبة العامل وطرده ، وبدلا من إحراق كمية المكرونة الفاسدة ، ونظرا لارتفاع ثمن مكوناتها من الدقيق والنشا ، وكونها عبارة عن مواد غذائية تم تعقيمها في الماء الساخن قرر إضافتها إلى علف العجول التي تحسن وزنها كثيرا .

فلم أتمالك نفسي وأنا انظر إلى افخاذى التي تدخل محشورة في بنطلوني بصعوبة بعد ازدياد وزنى ، ياترى كم فأرا أكلت ؟؟ وكم صرصارًا مضغت وبلعت. وأصابنى الغثيان وظللت في سريري أكثر من شهر لا آكل شيئًا يذكر حتى أصابني الوهن ، وقل وزنى لأقل من خمسة وسبعين كيلو جرامًا وكان قبلها يزيد عن المائة كيلو جرامًا.

وقتها تأكدت أنني قد تخلصت نهائياً من كمية الفئـــران في جسدي وأثناء خروجي من باب منزلي ذات يوم وجـــدت مجموعة من النمل تجر حبة من المكرونة إياها إلى جحرها ، ولاحظت كبر حجم النمل وقوته ، فأنا الوحيد الذي أعرف سر كبر حجم النمل ، ورفعت قدمي حتى لا أدوس عليها ، فـدق جرس التليفون فرجعت بسرعة لأرد ، فإذا بصـــديق عزيــز يسالنى :

إيه يا عم أمال المكرونة الحلوة بتاعتك فــين ؟؟ ..... إللى ياكل لوحده يزور !! .

* * * *

إلى اللقاء في الجزء الثاني من أحلى أيام الزريبة إن كان في العمر بقية وشاء الله ذلك.

الفهرس

الموضـــــــــوع	الصفحة
مقدمة : الزريبة	٥
بداية غير عاطفية	٧
أول عام دراسي بالكلية	١٥
ذوق حما ر العم يونس	٢٣
الخنزير المظلوم	٣١
حياة الرعب في إدفينا	٣٨
مطوبس والليلة الموعودة	٤٥
اختطاف شاعر الكلية	٥٣
ديك وكسكسي وعلقة ساخنة	٦١
رحلة مجهولة إلى جهة غير معلومة	٧٢
في غرفة عدي صدام حسين الخاصة	٨٠
وليمة على شرف كلب	٨٩
عفوا أنا لست سحلية	٩٤
ليلة الدخلة	١٠٠
سر الجاموسة الغامض	١٠٥
أغبى طبيب بيطري في العالم	١١٣
حكايتي مع الخروف	١١٨
الشيخ الدكتور	١٢٤
دكتور مسالك بيطرية	١٣٣
مكرونة بالخلطة السرية	١٤٠

* * *

الطبعة الأولى ١٤٣١ هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع : ٣٠٢٥ لسنة ٢٠١١م